

مسلسل عمر

[نحتاً طيراً شامل للصورة]

أنس سعيد محمد

مسلسل عمر

[نختأطبر شامل للصورة]

أنس سعبر محمد

الكتاب : مسلسل عمر، نحو تأطير شامل للصورة

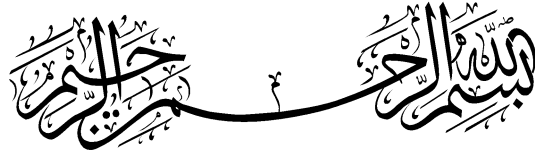
المؤلف : أنس سعيد محمد

صدر للمؤلف : مسارب إبليس (رواية)

الموقع الإلكتروني للمؤلف : innocentdays.wordpress.com

البريد الإلكتروني للمؤلف : anas.said.mohamed@gmail.com

طبعة إلكترونية



"نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله"

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين، نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين.

وبعد ،

فقد أويثُ يوماً إلى فراشي بعد انشغالٍ مني ببعض فصول هذا الكتاب، وقد جرت عادتي على مطالعة صفحاتٍ من بعض الكتب قبل استسلامي لسلطان النوم. فكان أن تناولتُ في ذلك اليوم كتاب (مقدمة ابن خلدون)، على غير نية مسبقة مني لتناوله، وشرعتُ أعبرُ بعينيَّ صفحات مقدمة المحقق التي تلتها خطبة كتاب العبر، وكان أن قرأت في إحدى فقراتها :

" أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدُّ إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن إخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتُضرب فيها الأمثال، وتُطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال،

وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظراً وتحقيقاً، وتعليلٌ للكائنات ومبadiها دقيق، وعلمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمة عريقٌ وجديرٌ بأن يُعدَّ في علومها وخليق.

ثم انزعجت عيني، وارتدَّت إلى أحد سطور هذه الفقرة، واستقرت مستغرِبةً على العبارة التي قمت بتسطيرها في هذا الاقتباس، فهل حقُّ تساوي العلماء والجهال في فهم التاريخ؟ وهل يتساوون في فهم ظاهره وباطنه معاً كما جاء بيانهما في نفس الفقرة؟ أم أن التساوي إنما يكون في فهم ظاهره فقط؟ وهل فهمُ الناس في عصر ابن خلدون للتاريخ هو نفس فهم الناس له في عصرنا هذا؟ وهو عصرٌ ابتلي باختلال موازين اللغة عند فئات من الناس، اختلالاً حال بينهم وبين فهم ما يَرِدُ إليهم من تراثهم وتاريخهم.

لم يزل الناس باحثين عن الحكمة في استنباط دروس التاريخ، على اختلافٍ بينهم في الأفهام والعقول والأغراض، ولم يزل المسلمون منهم يستنبطون أحكام الشريعة من نصوص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، على اختلافٍ بينهم في ذلك، ولم يزالوا كذلك مختلفين في نقل التاريخ الإسلامي وتأويله تأويلاً يستخرج من ثناياه حكماً ودروساً وعبراً، يُسقطونها على واقعهم ويستشهدون بها على عقائدهم وأفكارهم وأقوالهم وأفعالهم.

ونحن نعيش الآن في زمنٍ تعددت فيه أساليب تناول التاريخ، وهو تعددٌ يُرَدُّ إلى التنوع الكبير الحاصل في وسائل الإعلام والتواصل، بحيث لم يزل المتعاطون لهذا الفن هادفين إلى تيسير عرضه وتسهيل الوصول إلى استيعابه وفهمه من طرف عوام الناس قبل مثقفهم، وما من شك في أن أسلوب العرض على شكل "المسلسل التاريخي"، أو "الدراما التاريخية"، قد وجد له سوقاً رائجةً في شاشاتنا العربية والإسلامية، وهو رواجٌ

امتد به إلى أن يحتل مكاناً في ساحة النقاش الفكري حول عددٍ من القضايا التي أثارها ويشيرها هذا الفن الحديث المبتكر.

والآن نحن، وبين أيدينا هذا المسلسل الجديد الذي عُرض في شهر رمضان المبارك لهذا العام، والذي يحكي سيرة أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقف أمام تطورٍ كبيرٍ ولافتٍ للقضايا المثارة للنقاش في ساحتنا الفكرية، وأهم شواهد ذلك التطور ما حدث في المسلسل من سابقة التجسيد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، بل ولغيره من بقية الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام.

إلا أن سابقة التجسيد هذه هي ليست السؤال الوحيد، وليست القضية المحورية التي تدور بقية القضايا في فلكها، بل هي في الحقيقة جزءٌ من كل، ونتيجةٌ من سبب، وشاهدٌ من فكرة، والحديث عنها لمن أراد أن يتناولها بحديث، لا ينبغي أن يكون مفصلاً عن بقية السياقات التي تنتمي إليها، والتي هي منها جزءٌ لا يتجزأ.

لقد حاول هذا الكتاب الذي بين أيديكم أن يقدم لكم، كما يشير إلى ذلك عنوانه، تأطيراً شاملاً للصورة التي يعرضها مسلسل عمر، فهو بذلك ليس دراسةً مفصلة، ولا نقداً علمياً مبنياً على أصول، ولا نقداً تاريخياً لما تم عرضه في المسلسل، وهو بذلك - إن صحت العبارة - لا يتطرق للحديث عن مواضيع، بل يحاول الإحاطة بها، وتأطيرها، والإشارة إليها، فيكون بذلك كمن يقول للقارئ: "هذه مواضيع يجب أن يُتحدث عنها".

وعلى ذلك، فمن كان باحثاً عن النقد العلمي والتاريخي المؤصل والمفصل لمسلسل عمر، فليس في هذا الكتاب بُغيته، وإنما أضع بين أيديكم فيما يلي فهرساً لعناوين الكتاب، عساه يكون دليلاً للقارئ ينتقل به إلى ما قد تهمه قراءته.

وختاماً لهذا التقديم أقول، بأن مادة هذا الكتاب هي مزيجٌ من معلوماتٍ عرفتُها، وحلقاتٍ تابعتها، ومقالاتٍ قرأتُها، ومقابلاتٍ شاهدتها، وآراءٍ اطلَّعتُ عليها، وأفكارٍ استنتجتُها، وأسئلةٍ اطَّرحْتُ علي، وأجوبةٍ حاولتُها، فهي بذلك محتملةٌ للصواب والخطأ، وربما لم تسلم من معلومةٍ خاطئة، أو معلومةٍ ناقصة، أو فكرةٍ جانبت الصواب، أو استنتاجٍ في غير محله.

فأسأل الله أن يتجاوز عني ما كان في هذا الكتاب من خللٍ وزلل، وأسأله تعالى لي ولكم التوفيق والهداية إلى طريق الحق وسُبل الرِّشاد.

أنس سعيد محمد

طنجة – 2012/09/23

فهرس الكتاب

5	مقدمة المؤلف
9	فهرس الكتاب
11	الفصل التمهيدي الأول : جدل يتكرر كل عام
16	الفصل التمهيدي الثاني : خصائص الدراما التاريخية وسؤال الغاية والوسيلة ..
19	- بين الكتابة والصورة
22	- الاختصار
23	- الإضافة الدرامية
24	- الرؤية للشخصيات
25	- الطرح الفكري
26	- احتمالات التدليس
31	الفصل الثالث : جدلية التجسيد في مسلسل عمر
32	- تعامل حذر من المخرج حاتم علي

- 35 - أسئلة حول موقف لجنة العلماء
- 41 - نقد للموقف السلفي
- 59 - ويظل سؤال التجسيد قائماً
- 63 الفصل الرابع : كيف نقيم مسلسل عمر ؟
- 65 - الجانب العقائدي، بين السنة والشيعة
- 67 - الجانب الفكري، التأويل الحدائي
- 73 - الجانب النقدي، مسلسل عمر في قفص الاتهام
- 76 الفصل الخامس : قراءات انطباعية في مسلسل عمر
- 78 - في السيناريو والنص الدرامي
- 92 - في الإخراج الفني للصورة
- 107 - شخصيات المسلسل، الاختيار والأداء
- 142 - نعم لم يحصل تشويه، ولكن .. !
- 146 آخر الكلام : دعوة إلى النزاهة

الفصل التمهيدي الأول

جدل يتكرر كل عام

ما لبثت الأقلام أن تزاхمت، والآراء والفتاوى، منذ عُلّم ونحن نشق طريقنا نحو رمضان لهذا العام (1433 هـ، 2012 م)، باقتراب عرض مسلسل تاريخي لا عهد لنا لما جاء فيه، فكان الأول من نوعه، والأكثر جرأة على اقتحام المحذور فيما يخص تجسيد كبار الصحابة والخلفاء الراشدين في الأعمال الدرامية التاريخية، ورغم أن بعض الأعمال الإيرانية قد سبقتنا منذ بعيدٍ في هذا المجال، بل وتجاوزت إلى تجسيد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا أن كون مسلسل (عمر) هو أول مسلسل يتم إنتاجه في المعسكر السني، أو المحسوب على السنة، ويقوم بتجسيد أمير المؤمنين الفاروق وغيره من الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، كان من شأنه أن يثير ضجة أعلى بكثير مما كان قد أثير في العام الماضي، بل في عدد من الأعوام الماضية منذ لمع نجم الدراما التاريخية وصار لها حضور سنوي راتب في شاشاتنا كل رمضان.

تاريخ الجدل حول مسألة تجسيد الشخصيات المقدسة إسلامياً هو تاريخ قديم، يعود إلى بدايات القرن الماضي، وتحديدًا في عام 1926 عندما همّ الممثل المصري الراحل يوسف وهبي بتجسيد شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد الأعمال السينمائية، الأمر الذي لم يتم، بعد أن أثار ضجة عارمة وموجة من الانتقادات الشديدة كانت سبباً في إصدار الأزهر الشريف فتوى، تمنع منعاً كلياً

تجسيد الأنبياء والصحابة والعشرة المبشرين بالجنة وآل البيت رضي الله عنهم أجمعين، إلا أن أرباب فن الدراما التاريخية أبوا إلا أن يعلنوا تحديهم لفتاوى المنع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وهو تحدٍّ نابع عن اقتناع راسخ منهم بضرورة تجسيد تلك الشخصيات المقدسة تجسيداً يقربها إلى المشاهد العربي المسلم أولاً، وإلى المشاهد الأجنبي غير المسلم ثانياً، وهدفهم المعلن من ذلك تقديم صورة جميلة عن الإسلام والمسلمين، ومحاربة المفاهيم المغلوطة لدى الغرب عنا وعن تاريخنا وهويتنا وثقافتنا.

ولعل من أبرز الأعمال التي أثارت جدلاً واسعاً في عصرها فيلم الرسالة، لمخرجه السوري الراحل مصطفى العقاد، وهو الفيلم الشهير الذي يحكي قصة رسالة الإسلام الخالدة، والذي لا يزال يعاد على شاشاتنا العربية في كل الأعياد الدينية، وهو فيلم مازال يشكل حتى الآن في اعتبار الكثيرين السقف الذي لم يتم تجاوزه من طرف كل الأعمال الدرامية التي تناولت السيرة النبوية حتى الآن، وقد صرنا اليوم نسمع أنصار التجسيد يحتجون به كعمل خالد انتقد في وقت عرضه، ليُنصف بعد سنوات عديدة ويتحول كثير من الناقدين له إلى معجبين به.

وغني عن الذكر أن الجدل الذي رافق فيلم الرسالة لم يتجاوز ما حدث من تجسيده لشخصية سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، عربياً من طرف الفنان المصري الراحل عبد الله غيث، وإنجليزياً من طرف الفنان المكسيكي الراحل أنطوني كوين، ولعله لا أحد في ذلك الوقت كان يتخيل أنه سيأتي يوم يشاهد فيه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب مجسدين جميعهم في عمل درامي عربي، وهو ما تحقق فعلاً ولأول مرة في هذا العام، في سابقة تستحق أن يطلق عليها اسم "الحدث التاريخي"، وهو حدثٌ تم بعد عدد من المحاولات الجريئة التي

تتابعت منذ عدة سنوات، والتي تم بواسطتها الاقتراب، تدريجياً، من تجسيد الصحابة الكرام في عدد من الأعمال التاريخية التي عُرضت في الأعوام القليلة الماضية.

ولعل أجراً تلك الأعمال، قبل مسلسل عمر، مسلسل (الحسن والحسين) الذي عُرض في العام الماضي، والذي أثار تجسيده لسيد شباب أهل الجنة جدلاً كبيراً، سرعان ما خبا وانطفأ بسبب ضعف العمل فنياً كما أحسب، أو بسبب عدم ثقة الشارع العربي في المشرفين على العمل ممن لا يُعرف لهم تاريخ يُذكر في الدراما التاريخية.

وقبل (الحسن والحسين)، عُرض مسلسل (خالد بن الوليد) من جزأين، وهو مسلسل أثار من الجدل الشيء الكثير بسبب تجسيده لشخصية سيف الله المسلول خالد بن الوليد، من طرف الممثل السوري باسم ياخور، وهو ممثل نصراني غير مسلم، ويُذكر أنه أعلن اعتذاره عن المشاركة في الجزء الثاني من المسلسل لانشغاله المسبق بأعمال أخرى، فكان دور خالد بن الوليد في الجزء الثاني من نصيب الممثل السوري المسلم سامر المصري.

ويُذكر أيضاً مسلسل (قمر بني هاشم)، وهو مسلسل يحكي قصة السيرة النبوية في ثلاثين حلقة كان لها نصيبها الوافر أيضاً من الجدل العنيف، وهذه المرة بسبب تجسيد بعض الشخصيات الإسلامية من طرف ممثلين نصراني، ويُذكر على وجه التحديد شخصية أسماء بنت أبي بكر التي قامت بأداء دورها الممثلة النصرانية جيني أسبر، وشخصية حمزة بن عبد المطلب الذي أدى دوره الممثل رشيد عساف، النصراني أيضاً، وهو نفسه قام بأداء دور صلاح الدين الأيوبي في مسلسل (البحث عن صلاح الدين).

وقد كان لمسلسل (قمر بني هاشم) نصيب أوفر من الجرأة على اقتحام محظور التجسيد، عبر العرض الكامل لأصوات الصحابة والخلفاء الراشدين، فقد سمعنا أبا بكر الصديق يتحدث مباشرة ودون موارد، مؤدياً صوته الفنان أيمن السالك، وهو نصراني.

كما قام المسلسل بعملية تطوير لأسلوب المعالجة الدرامية للمشاهد التي يظهر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو إضافة إلى محافظته على أسلوب (عدسة الكاميرا) التي تجسد مجال رؤيته وسمعه صلى الله عليه وسلم في جلوسه وقيامه وحركته ومشيه وركوبه، وهو أسلوب اعتمد في فيلم الرسالة، فإن (قمر بني هاشم) قد أضاف إليه عنصرين رمزيين أحدهما بصري والآخر سمعي، فأما العنصر البصري فهو عصاه التي تظهر ملازمة له دائماً في كافة أحواله، وأما السمعي فهو النغمة الموسيقية ذات الطابع الإسلامي، لحن الأذان، والتي تُسمع عند كل ظهور له صلى الله عليه وسلم.

والآن بعد كل سنوات الجدل هذه التي بدأت منذ زمن بعيد، لم يعد خافياً أن حدة الصراع الفكري في تصاعد مستمر عاماً بعد عام، وأنا في كل رمضان نكون على موعد مع مسلسل تاريخي يشير الجدل ويسيل مداد الصحفيين والمدونين والمعلقين، وقبلهم العلماء والمفتون، ولذلك لا غرابة في أن نتوقع منذ الآن، أننا سنكون على موعد مع جدل آخر أكثر حدة في رمضان القادم بإذن الله، ومع مسلسل تاريخي أكثر إثارة للجدل من كل ما سبقه من مسلسلات.

ولعل من الجدير بالانتباه له والوعي به، كوننا نقف هذا العام على حد فاصل، وأمام وضع حرج ذي خصوصية متميزة، ودليل ذلك أن مسلسل عمر الذي بين أيدينا الآن قد اقتحم كل شيء، واخترق كل المحظور، وجسّد جميع الصحابة دون

استثناء بما فيهم الخلفاء الراشدون، ولم يبق الآن سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه أمهات المؤمنين.

فهل يكون مسلسل عمر هو الحد النهائي، والحلقة الأخيرة من مسلسل التجسيد؟ أم أن العام القادم سيكون مليئاً بمفاجآت صادمة؟!

هل القائمون على هذه المسلسلات مقتنعون فعلاً بجرمة تجسيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه، أم أنهم متوجهون منذ البداية، وبشكل تدريجي، نحو اقتحام هذا المجال الملعوم والخطير من الجدل الفقهي والفكري؟

وهل ستكون مبالغةً منا أن نتخوف منذ الآن على أدوار الصحابة والخلفاء الراشدين، أن يجسد أدوارهم في المستقبل ممثلون غير أكفاء بشكل يشوه صورهم، بعد أن فتح مسلسل عمر باب التجسيد على مصراعيه؟

الوقت يمضي، ولا أعتقد أن انتظاراً طويلاً يفصلنا عن معرفة الإجابة عن هذه التساؤلات المحيرة.

الفصل التمهيدي الثاني

خصائص الدراما التاريخية وسؤال الغاية والوسيلة

قبل الانتقال إلى الحديث عن مسلسل (عمر)، وعما يهدف إليه هذا الكتاب من محاولة استقراء موجزة لبعض خصائصه التي شكلت عند البعض عوامل تأييد وعند البعض الآخر عوامل معارضة ورفض، أحسب أن من المفيد أن نعرج على حديث عام حول خصائص الدراما التاريخية، كتمهيد ثانٍ يحمل، حتماً، من الإفادة ما سوف يساعدنا على استقراء أكثر يسراً للمسلسل.

بدايةً، أجد أنه قد صار من اللازم الآن أن نعي الفرق بين (المسلسل الديني)، و(المسلسل التاريخي). ليس كل مسلسل ديني هو بالضرورة تاريخي، كما أن المسلسل التاريخي هو ليس مسلسلاً دينياً بالضرورة. ولا يخفى على الملاحظ أن الدراما التاريخية قد توجهت منذ سنوات عديدة توجهاً مختلفاً عما كانت عليه في الماضي، أيام كانت المسلسلات التاريخية مقتصرة على تقديم شخصيات إسلامية مُجمع على جلالها، يتم تقديمها كقدوة دينية مثالية للمشاهد. حتى أننا، وفي لغة الحوار اليومي، نستطيع أن نلاحظ بشكل جليّ انعدام التمييز بين المسلسل (التاريخي) والمسلسل (الديني)، فمازال كثير من الناس يتناولون كل مسلسل تاريخي على أنه مسلسل ديني، ويفترضون

فيه تقديم شخصيات إسلامية مثالية، الأمر الذي لم يعد قاعدة عامة منذ سنوات عديدة وهذا أمر يسترعي الانتباه.

ففي الماضي كان اهتمام الدراما التاريخية، والمصرية بشكل خاص، منصّباً على تقديم شخصيات مجمع على عظيم قدرها، غير مثيرة للجدل في ذاتها وسيرتها إلا في أضيق الحدود التي لا يتعاطاها سوى المتخصصون وأهل الانتماءات والمذاهب والكلام بعيداً عن عوام المسلمين وناشئتهم، وكأمثلة على ذلك عمر بن عبد العزيز، وعمر بن العاص، والإمام الترمذي، والإمام الشافعي، والإمام أبو حنيفة... فكانت تلك الأعمال بمثابة رسائل وعظ مباشر يتابعها المشاهد باطمئنان تام بغض النظر عن بساطة إنتاجها وهشاشة التمثيل والإخراج في كثير منها.

فيما بعد، وبعد أن انتقل مشعل الدراما التاريخية من الأيدي المصرية إلى الأيدي السورية، كانت لتلك الأيدي السورية كلمة أخرى، إذ صار بالإمكان أن نلاحظ تغيراً ملحوظاً في التوجه الفكري للدراما التاريخية، والتي نحت منحى يعتمد إثارة الجدل عبر تناول شخصيات لم يحسم التاريخ كلمته فيها حتى الآن، ومازال الصراع حولها قائماً بين الطوائف المختلفة، وبين أصحاب الطائفة الواحدة أحياناً، وذلك ما جعل كل مسلسل تاريخي يُعرض على الشاشة يأتي محملاً بالجدل والنقاش والأسئلة التي لا جواب لها، ولا يخفى على المتابع أن عدداً من تلك الأعمال يهدف إلى طرح قضايا سياسية وفكرية راهنة عبر إسقاط أحداث التاريخ عليها.

ونذكر كأمثلة، مسلسل هولوكو، وفارس بني مروان (مسلمة بن عبد الملك)، والحجاج بن يوسف الثقفي، وصقر قريش، وربيعة قرطبة، وملوك الطوائف، وخالد بن الوليد، والقعقاع بن عمرو التميمي، والحسن والحسين، وأخيراً، مسلسل عمر.

ومما يجدر ذكره، أيضاً، تحول الدراما التاريخية إلى نزعة أكثر تحراً، وبشكل واضح، يتمثل في محاولة نزع الصبغة الدينية عن بعض تلك المسلسلات التاريخية، وتقديمها على أنها مسلسلات (تاريخية) فقط، تعرض حقبة معينة من التاريخ، وشخصية تاريخية معينة تقبل النقد، ولا يمكن اعتبارها مرجعاً دينياً في حال من الأحوال، ويتمثل أيضاً، وهذا ما نلاحظه خصوصاً في أعمال المخرج حاتم علي، في الذهاب إلى تقديم مشاهد جريئة فيما يتعلق بملابس الممثلات، وفي إعطاء مشاهد العري والرقص نصيباً وافراً من حلقات العمل التاريخي، بحجة أن ذلك يدخل ضمن إطار العرض الأمين لواقع كان فعلاً بتلك الصورة في الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث العمل.

إن توجهاً كهذا، لا يمكن أن يجد لنفسه تبريراً دينياً في حال من الأحوال، حتى من أكثر الدعاة الإسلاميين تحراً، وهو ما يقدم دليلاً على أن الصبغة الدينية لم تعد خاصية من خصائص الدراما التاريخية، والتي بدأت تتكشف على أنها تدعم القراءات الحداثية لتاريخنا الإسلامي.

إن ثمة حقيقة فكرية ونفسية تختبئ وراء طبيعة التوجه الفني للمسلسلات التاريخية الجديدة. وعند الحديث عن ادعاء الأمانة التاريخية في هذا الصدد، فأين يذهب بعض المخرجين بما يتم اكتشافه في مسلسلاتهم من تدليس بيّن وتحريف واضح؟! وماذا عن الأمانة الدينية والأخلاقية المطلوبة في كل عملٍ تاريخي يحترم كافة فئات الجمهور؟!!

إذاً، للدراما التاريخية الآن خصائص تميزها، قد صارت بالنسبة لها أشبه بهوية جديدة، وبعض تلك الخصائص قد يكون هو نفسه سبباً لنقدها والطعن في أصحابها واتهام نواياهم، ولذلك أعتقد أن الوعي الكامل بتلك الخصائص أمر ضروري للمتابع

والناقد، كي تكون قراءته للعمل قراءة منصفة له، تعطيه حقه الكامل من غير إفراط ولا تفريط، بعيداً عن التلميع وعن التجني.

ونذكر هنا طرفاً موجزاً من تلك الملامح المميّزة لكل مسلسل تاريخي :

● بين الكتابة والصورة :

حتى عهد قريب نسبياً، وقبل أن تنفجر ثورة الإعلام التي أحدثت تغييرات جذرية على حياتنا الثقافية، كانت رواية التاريخ تتم عبر الكتابة والتدوين، وعبر السرد اللفظي في الخطب والدروس، إلى أن جاءت وسائل الإعلام مصحوبة بعدد من التقنيات الحديثة في التصوير والإخراج الفني، الأمر الذي أحدث نمطاً جديداً في رواية التاريخ ألا وهو "الدراما التاريخية".

انقسمت الآراء بين المسلمين بخصوص هذا المستجد الذي ما عهدوه من قبل، فمنهم من رحب به واستبشر خيراً بفوائده الكثيرة التي تتجاوز بعض عيوب الكتاب، ومنهم من رفضه رفضاً قاطعاً بناءً على ما يعتقدونه من وجود محاذير شرعية هي ملازمة بالضرورة للعمل الدرامي ولا يمكن أن تنفك عنه بحال من الأحوال، أو بناءً على انعدام ثقتهم في القائمين على هذا الحقل والذين هم في نظرهم غير مؤهلين بما يكفي لتناول التاريخ، مما قد يكون سبباً في حصول تشويهات سيئة الأثر لأعلام التاريخ وأحداثه التي كانت ولا زالت تشكل جزءاً من ذاكرة المسلمين وهويتهم.

ولأن الحديث المفصل في هذا الموضوع ليس مما اختار هذا الكتاب التطرق إليه، إلا أنه لا بأس من ذكر نقاط موجزة عن العلاقة بين رواية التاريخ كتابةً وصورة.

فإن لكل نوع من النوعين مميزاته الخاصة وعيوبه الخاصة أيضاً، فالتأريخ الكتابي ما يميزه من خصائص يتعذر توفرها في التأريخ الدرامي، في حين أن للتأريخ الدرامي إيجابيات جمّة لا يمكن إنكارها، بل ينبغي الاعتراف بأننا في أمسّ الحاجة إليها في ظل ظاهرة عزوف الشباب عن القراءة واستماع المحاضرات الدينية التي تتناول التاريخ إلا قليلاً.

من مميزات العرض الكتابي للتاريخ مسألة التوثيق، وضبط الألفاظ والمسايد والمراجع، وصلاحية تناول الأكاديمي للدراسة والبحث، وأيضاً مسألة الإطالة والإسهاب، وعرض أكبر قدر ممكن من التفاصيل الدقيقة، وكل هذا يجعل الكتاب أولاً وآخراً هو المصدر والمرجع، وهو المبتدأ والمنتهى في دراسة التاريخ، إذ لا غنى لطالب العلم بالتاريخ عنه مطلقاً.

أما سلبياته فهي مما يتأثر به عوام الناس أكثر من مثقفهم، وأعني هنا نمطية أسلوب العرض ورتابته، فإن القارئ للتاريخ في كتابٍ لا يسعه أن يخرج عن الإطار الشكلي الذي يفرضه الكتاب، خط عربي مطبوع على ورق. وهو ما من شأنه أن يضعف قوة التصور للأحداث التاريخية ولا سيما لمن يعاني من فراغات معرفية في اللغة وفي الإمام بالخصائص الإنسانية والاجتماعية للفترة المقروء عنها، كما قد يكون سبباً في إضعاف القدرة على التمييز بين الشخصيات الكثيرة، والتي يتناولها القارئ مقدّمة له بنفس الشكل دون وجود ما يساعده على التمييز بينها، الأمر الذي قد يتسبب له في نسيان بعضها أو الخلط بينها، وإني أتحدث هنا عن الإنسان العامي الطالب للثقافة وليس عن الدارس المتخصص.

وهذه السلبيات التي يتّسم بها العرض الكتابي للتاريخ هي مما قد تم تجاوزه في العرض الدرامي، والذي تتجلى أهميته في تبسيط الأحداث لأكبر قدر ممكن،

وتقديمها لعوام الناس بأسلوب سلس ميسر سهل الاستيعاب من جهة، ومن جهة أخرى في تقديم المساعدة على التمييز بين الشخصيات التاريخية وسهولة تذكرها واستحضارها والتفريق بينها، وذلك لانطباع صورة الممثلين الذين يؤدون أدوارها في ذهن المشاهد، مما يسهل عليه فهم الأحداث واستيعابها بشكل أفضل إن حدث له يوم أن يقرأ عنها أو يسمع.

وإني أذكر عن نفسي، وقد قرأت عدداً من صفحات التاريخ، وعدداً من كتب السيرة النبوية وسير الصحابة الكرام، مثل "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين" و "فقه السيرة النبوية" و "رجال حول الرسول" و "صور مشرقة من حياة الصحابة"، وكان يحدث ساعة قراءتي للكتب أن أتفاعل معها وأتأثر بقصصها وأرتبط بشخصياتها وأتعلق بمواقفهم العظيمة، ثم لا ألبث إذا تباعد الزمن بيني وبين قراءتها أن أنسى كثيراً، وتختلط في ذاكرتي الصور المتخيلة والقصص والأسماء، فربما أذكر اسم الصحابي ولا أذكر قصته، وربما أذكر قصة معينة ثم أنسى اسم الصحابي، وربما اختلط لدي اسم صحابي ما بقصة صحابي آخر، وكل ذلك يعود إلى كون القراءة هي بطبيعتها مقدّمة في قالب موحد يصعب معه إحداث التمييز بين الشخصيات التاريخية. فكان أن تأكّدت لدي أهمية العرض الدرامي الذي يقدم حلولاً بصرية ذات فائدة عظيمة، لا سيما وأني لازلت أحتفظ من بعض المسلسلات التاريخية التي شاهدتها صغيراً وكبيراً، بذلك التمييز الشكلي بين شخصية وأخرى، والمبني على اختلاف أشكال الممثلين وأصواتهم وحركاتهم ومواقفهم، وهو ما كان من شأنه أن يسهل علي كثيراً مهمة فهم المرحلة التاريخية والربط بين أحداثها وشخصياتها، حتى إذا هممت يوماً بالبحث عنها في المراجع والكتب كان استيعابي لتلك الكتب سهلاً ميسراً، والفضل في ذلك يعود إلى طبيعة العرض الدرامي التي ساعدتني مسبقاً على إحداث التمييز بين مختلف الشخصيات والأحداث.

إلا أن العرض الدرامي هو بدوره لا يخلو من سلبيات كثيرة، بعضها متعلق أساساً بطبيعة التجسيد للشخصيات التاريخية، والذي قد يخالطه من الخلل والزلل والتحريف القبيح ما يخرج الشخصية عن طبيعتها ويقدمها بشكل شائهٍ غير واقعي، وفي هذا خطر يجب أن يُنتبه لحجمه.

وبعضها الآخر متعلق بالطبيعة المختصرة للعرض الدرامي، والتي تجتزئ من النصوص وتغيرها وتعيد كتابتها، فتكون الدراما التاريخية بذلك، ومهما حاولت أن تجعل من نفسها وثائق تاريخية تتناولها الأجيال، مفتقرة للحجية، غير معترف بها أكاديمياً، وغير معتبرة كوثنائق علمية قابلة للاستشهاد بها.

كل هذا، يؤكد على أن العلاقة بين الكتابة والصورة في العرض التاريخي هي علاقة تكامل، فكل واحد منهما يحتاج إلى الآخر ويكمّله ويسد ما به من نقص، مع الجزم القاطع بأفضلية الكتاب وأنه هو الأصل والمرجع، وأن العرض الدرامي هو رغم كل شيء يحتمل الاستغناء عنه، في حين أن لا غنى عن الكتاب مطلقاً.

• الاختصار :

ومعناه أن المسلسل التاريخي هو مختصر بالضرورة، لا يتسع فيه المجال لتقديم تفاصيل وافية عن الشخصية المتناولة والأحداث المقدّمة، فيكون هناك انتقاء واختصار للأحداث والحوارات والخطب، وتركيز على بعضها دون الآخر. أي أن ما يقوله المسلسل التاريخي ليس هو كل شيء، وما حدث في المسلسل التاريخي لا يشكل سوى جزء مما حدث فعلاً، وما قيل في المسلسل ليس سوى طرفاً مما قيل في الحقيقة مما هو مصنف في الكتب والمراجع.

وأَسباب الاختصار في عمومها منطقية ومقبولة، عدا ما كان منها منطوياً على اجتزاء وراءه غرض، بل منها ما قد يكون مفروضاً على المسلسل بطبيعة مدته القصيرة التي لا تتجاوز ثلاثين حلقة على الأغلب، مع تعدد شخصياته وأحداثه التي ربما امتدت لعشرات السنين، مما يضطر بكاتب النص إلى اختصار ما جاء في المراجع من حوارات وخطب حتى تتلاءم مع العرض الدرامي الذي لا تُقبل فيه الإطالة الشديدة كما قد تُقبل في الكتب والمجلدات.

ولذلك، فإن خاصية الاختصار هذه تجعل من المشاهد التي يقدمها المسلسل التاريخي وثائق محملة تضع المتابع أمام الصورة العامة للأحداث فقط دون أن تقدم له كافة التفاصيل الدقيقة المتعلقة بها، وهذا مما يجعل من المستحيل على الدراما التاريخية رغم أهميتها وجماليتها أن تحل محل التأريخ الكتابي للأعلام والأحداث.

• الإضافة الدرامية :

إلى جانب خاصية الاختصار، فإن المسلسل التاريخي هو لا بد مضيفٌ من عنده حوارات وأحداث لا وجود لها في المراجع التاريخية، وإنما هي من اختراع المؤلف ووضعه.

وهذه الإضافات الدرامية قد تكون سهلة التمييز أحياناً من طرف المتابع العادي، وقد تكون صعبة التمييز أحياناً أخرى، ولها أسباب كثيرة، وهي عائدة في معظم الأحيان إلى الاختلاف الجذري بين خصائص التأريخ الكتابي والتأريخ الدرامي، فالتأريخ الكتابي يتميز بوحدة الشكل ووحدة الأسلوب، مع قابلية شبه مطلقة لتطويع اللغة من أجل الوصف والبيان، و للإطالة والإسهاب في السرد والتناول، وأما التأريخ الدرامي فهو برغم تطوره الفني واعتماده على عدد من التقنيات البصرية والسمعية

الحديث، إلا أنه رغم ذلك يقف عاجزاً على أن يصف بعض المواقف والأحداث ويجسدها بنفس الدقة المتناهية التي تسمح بها الكتابة.

ولذلك انبثقت ضرورة الإضافة الدرامية من ضرورة شرح بعض الأوصاف المذكورة في الكتب لبعض الشخصيات، والتي لا يتيح السياق الدرامي في كثير من الأحيان عرضها، مما يضطر الكاتب إلى أن يفترض بعض الأقوال والمواقف وردود الأفعال، بناءً على الاستنتاجات العقلية المبنية على صفات الشخصيات كما تعرّفها الكتب، أو على التخمينات المتعلقة بالتفاصيل التي يُلزمها الطرح الدرامي مع انعدامها في المراجع التاريخية.

• الرؤية للشخصيات :

رؤية الشخصيات التاريخية أمر متعذر، لانعدام تقنيات التصوير في تلك العصور البعيدة، فكان كل ما يصلنا عن الشخصية أوصافها المكتوبة في المصنفات والمراجع، ولذا يتعذر على المسلسل التاريخي أن يعرض الصورة الحقيقية للشخصيات، بل يعرضها ولا بد بحسب رؤية المخرج لها وطريقة تخيله لأشكالها وتصرفاتها، فكان من نتيجة اختلاف رؤى المخرجين ذلك البون الشاسع بين نفس الشخصية التاريخية في مسلسلين مختلفين، فإن كل مخرج يقدم الشخصية التاريخية كما يراها هو، وكما يفهم هو النصوص والمراجع التاريخية المتعلقة بها، وأحياناً يتأثر العرض الدرامي لشخصية ما بموقف المخرج منها، فيحاول تعظيمها أو تشويهها في أعين المشاهدين بحسب ما يدين به من انتماء لفكر أو لمذهب، أما الحقيقة فهي دائماً مغيبة في التاريخ ولا يمكن لأحد أن يشهدها، إلا بقدر ما يسمح له به خياله المبني على ما قرأه وسمعه عن الشخصية وصفاتها وأقوالها وأفعالها، وربما موقفه منها.

• الطرح الفكري :

الآن، وانطلاقاً من هذه النقاط سالفة الذكر، أجد أن من الضروري أن نتحدث عن الاحتمالات المتعلقة بغاية القائمين على الأعمال التاريخية وهدفهم من صنعها وترويجها، وهي غاية تحتمل الخير والشر، سلامة الطوية وخبثها، ولا يمكن استنتاج ذلك إلا عبر قراءة لما بين سطور العمل الدرامي التاريخي، قراءة تتجاوز النظرة السطحية للأحداث والحوارات إلى ما وراءها من طرح فكري، وهذا دون شك من مهمة المدققين من أهل التخصص في الدين والفكر والتاريخ.

غني عن الذكر أن تاريخنا العربي والإسلامي كان ولا يزال نخباً لدعاة التغريب والإفساد، وما من صاحب دعوة كيفما كان نوعها، حقاً أم باطلاً، إلا وله استشهادات كثيرة من تاريخنا الإسلامي تخدم دعوته الفكرية، بل حتى أخصب العلمانيين والمستشرقين والملاحدة نجد أن لهم وقفات مع تاريخنا، يقتبسون منه، ويستشهدون به، - من أكثر صفحاته إشراقاً في بعض الأحيان -، ما يحاربون به دعوات الإسلام المعاصرة، ويدعون بدلاً عنها إلى أفكارهم الخبيثة الهدامة.

ولما كانت الدراما التاريخية واحدة من أكثر الوسائل تأثيراً في عصرنا الحديث، فإني أجد نفسي مضطراً على الدوام إلى التعامل معها بحذر، والنظر إليها بعين الشك والريبة، وعدم التسليم بما تتضمنه من أحداث ومواقف إلا بعد البحث والاستقصاء عنها في المراجع التاريخية المتعمدة. ولست أعني هنا بالضرورة احتمال تزوير الأحداث وتغييرها، بل إن بعض السموم الفكرية قد يمكن دسها في أكثر المشاهد الدرامية صدقاً من ناحية الطرح التاريخي.

كيف ذلك ؟

الجواب هو أنه ما من دراما تاريخية معاصرة تقتصر أهدافها فقط على استظهار التاريخ استظهاراً بارداً لا مغزى من ورائه، بل كلُّ عمل تاريخي إنما يطرح بالضرورة قضية معاصرة، ولما كانت معظم قضايانا الراهنة ذات جذور تمتد إلى صفحات التاريخ الأكثر جدلاً، فإن تناول التاريخ كمادة تخدم طرحاً إيديولوجياً ما هو أمر واقع ولا بد.

وهذا ما عبر عنه الدكتور وليد سيف، كاتب السيناريو لمسلسل عمر، مصرحاً بأن "كل عمل تاريخي هو دراما معاصرة."

ولست هنا أدعو إلى تسطيح الدراما التاريخية والعودة بها إلى أسلوب الوعظ المباشر، فقد يكون في ذلك من الغش للمشاهد ما لا يختلف عن غشه من الجهة المقابلة، وتاريخنا بطبيعة الحال ليس مثالياً، لكن إذا كنتُ مؤيداً لعرض أعمال تشغل العقل وتحفز الحس النقدي لمراحل وشخصيات معينة من تاريخنا، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون أبداً على حساب الحقائق التاريخية من جهة، ولا خدمة لأجندة سياسية أو طرح إيديولوجي معين من جهة أخرى.

• احتمالات التدليس :

إننا نتحدث هنا عن الأمانة التاريخية، وضرورة عدم التدليس والخداع، وليّ عنق التاريخ لخدمة أجندة معينة، وهذه أمور إن ثبتت فهي حقاً جرائم لا تغتفر، وغش عظيم للأمة الإسلامية وللمُشاهد العربي يجب إن أثبت على أصحابه أن يُتصدى له من المختصين بكل حزم وصرامة.

والتدليس في الأعمال التاريخية قد يتخذ أشكالاً عدة، يكون بعضها مكشوفاً وواضحاً، كتزوير حدث معين يعرفه جميع الناس على خلاف ما جاء في العمل

التاريخي، وقد يكون بعضها الآخر خفياً مستتراً لا يُتوصل إلى استبانته إلا بالقراءة والبحث والتدقيق. ومن مستغربات الأمور أن يُتَّحَجَّجَ لبعض التدليس من طرف عدد من القائمين على الأعمال التاريخية، بأن لهم منه هدفاً نبيلاً يسعى لنشر صورة طيبة عن الإسلام والمسلمين، ولتصحيح المفاهيم المغلوطة عنهم لدى الغرب، وأيضاً لترسيخ بعض القيم العالمية كالديمقراطية والحرية وحقوق المرأة من خلال إثبات أن روح الإسلام وجوهره لا يتعارضان مع تلك القيم الإنسانية الرفيعة !

وفي اعتقادي أن تدليس تاريخنا الإسلامي بواسطة الدراما لخدمة هذه الأهداف سالفة الذكر، هو إضافة إلى كونه غشاً للأمة، هو أيضاً غش للغرب نفسه ! فالذي يريد تصحيح صورة الغرب عن الإسلام والمسلمين عبر تقديم عمل تاريخي مسيئ ومؤدلج، لا يزيد على أن قدم هو الآخر، صورة مغلوطة أخرى عن الإسلام والمسلمين.

مع ذلك، يجب لدى محاكمتنا لعمل ما أن نحسن قراءته تفادياً لظلمه، وأن نتمكن من الأدوات اللازمة التي نستطيع بواسطتها التمييز بين العرض الأمين للحدث التاريخي وبين العرض المدلّس له.

ويحضرني هنا أحد الانتقادات التي قرأتها لمسلسل (ربيع قرطبة)، المسلسل الذي يحكي قصة الملك المنصور محمد بن أبي عامر، فقد ندد المنتقد بعدم التركيز على معارك المنصور الكثيرة وغزواته التي لم تسقط له فيها راية حتى قُتل في إحداها، في الوقت الذي انشغل فيه المسلسل بقصته الغرامية مع صبح البشكنجية، والمبالغ فيها بشكل واضح، وبمواضيع أخرى تخص سياسته الداخلية وعلاقته بالعامّة الذين جاء من أوساطهم.

هنا سؤال يطرح نفسه، هل دُلّس الكاتب في تناوله لسيرة المنصور ؟ هل خان الأمانة التاريخية عندما لم يختم مسلسله بمشهد مقتل الحاجب المنصور في ساحة المعركة ؟

الواقع أننا لا نستطيع الجزم بذلك، لأننا طبعاً لا نستطيع معرفة نية الكاتب ومقصده، لكن في الوقت نفسه لا يمكن أن نخفي انتقادنا حول المبالغة الواضحة لقصة الحب التي نشأت بينه وبين صبح، ولعل المتابع الذكي لن يفوته أن يستنتج الهدف من التركيز على هذه القصة وتحميلها، ربما، أكثر مما تحتمل.

لكن فيما يتعلق باختيار الكاتب لما قد ركّز عليه من حياة الملك المنصور، وهل اختار التركيز على سياسته الداخلية وعلاقته مع العامة، أم سياسته الخارجية وغزواته، فهذا أمر يعود له أولاً وأخيراً ما لم يدُلّس، فالمسلسل لا يتسع لدراسة الشخصية دراسة شاملة بكافة تفاصيلها، لكن اختيار الكاتب التركيز على جانب دون آخر هو أمر عائد له، يجب أن يُحترم، ولا يصح أن نتهم نواياه وأغراضه بناءً على رؤانا الخاصة ورغباتنا الشخصية فيما يعرضه المسلسل.

وحتى لو كان تركيز الكاتب على جوانب معينة على حساب أخرى، مبنياً على أسس إيديولوجية ما، فإن ذلك لا يمنحنا الحق أبداً في انتقاده فضلاً عن تخوينه واتهامه، وشرط ذلك أمانة التزامه بالنص التاريخي، لأن ذلك يحتمل أن يكون انتقاؤه لنصوص صحيحة تخص جوانب معينة من الشخصية المعالجة، محض اختيار بريء يريد أن يخدم به فكرة لا تجانب الصواب، وليس هذا بالتأكيد من قبيل القطع بسلامة الطوية وحسن النوايا، لكن أقول بأننا لا نستطيع إصدار الحكم آخذين بالظنة، مادام الكاتب لم يزور النص التاريخي، ولم يكن انتقاؤه ضرباً من ضروب

التدليس، ولم يَقُول الشخصيات ما لم تقله، أما نواياه وأغراضه فهي تظل دوماً مفتوحة على الاحتمالات الإيجابية والسلبية على حد سواء.

"نحن نحكم بالظاهر، والله وحده يتولى السرائر".

أما إذا ثبت تزوير النص التاريخي، تزويراً يخدم أجندة مشبوهة، وطرحاً فكرياً يجانب الحق، فهذه هي الخيانة التي ينبغي أن يُحاسب المسلسل بسببها حساباً عسيراً على يد النقاد والمشاهدين وأهل الاختصاص.

وأما تقويل الشخصيات ما لم تقله، فهو مما يمكن تقسيمه إلى قسمين، الأول إضافة حوارات وعبارات غير موجودة في كتب التاريخ، بهدف ترسيخ الشخصية في ذهن المشاهد دون تجاوزٍ للحقائق أو مناقضةٍ لها، وضرب المثال على صفاتها الثابتة بعيداً عن الأدلجة، فهذا مقبول، وقد يكون ضرورة تفرضها طبيعة العمل الدرامي القائمة على المشاهد الحوارية. والثاني افتراء على الشخصية وكذب عليها، واستغلال لها من طرف الكاتب لخدمة أجندته الخاصة، وهذا حشو قبيح، وخيانة غير مقبولة يجب أن تحاكم بصرامة.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف يمكن التمييز بين القسمين ؟

ربما يمكننا القول بأن ذلك عائد إلى ذكاء المشاهد وفطنته ومدى ثقافته وإطلاعه، إلا أنه يشكل جزءاً لا يتجزأ من مسؤولية الناقد والباحث المتخصص، والتي يجب أن يؤديها على أكمل وجه خدمة للأمانة التاريخية، ودفاعاً عن هويتنا الثقافية ضد أي محاولة للتدليس أو التلبيس أو الخداع.

بناءً على ما سبق، فإن كل ما يمكن أن نقوله عن مسلسل عمر هو نابع من هذه الأسس والمنطلقات سالفة الذكر، وكل ما سيأتي ذكره في الفصول وال فقرات التالية مبني على ما تم ذكره في التمهيد السابقين.

وفيما يلي بعض من محاولات الاستقراء لعدد من المواضيع ذات الارتباط مع مسلسل عمر، ارتباطاً جدلياً وفكرياً من جهة، وفنياً من جهة أخرى.

الفصل الثالث

جدلية التجسيد في مسلسل عمر

إن كثيراً من المتابعين لم يفتؤوا يعبرون عن عدم رضاهم على المستوى العام للدراما التاريخية، سواء على مستوى النصوص أو على مستوى الإخراج الفني. إلا أن فئة من المتابعين لهذا الشأن يهتمون بالإشارة إلى أن هنالك من العاملين في مجال الدراما التاريخية ثنائياً تستحق أعماله الاحترام، وهي أعمال قد فرضت نفسها وأثبتت جودتها وتفوقها على كافة الأصعدة.

إننا نتحدث هنا عن الثنائي المتميز، الكاتب وليد سيف والمخرج حاتم علي.

فقد كان لهذا الثنائي أعمال حفرت عميقاً في تاريخ الدراما، ورفعت سقفها إلى مستوى عجزت عنه كل الأعمال التاريخية الحديثة حتى الآن، ومن أهم أعمال هذا الثنائي مسلسل صلاح الدين الأيوبي الذي أدى دور صلاح الدين فيه الفنان جمال سليمان، والتغربية الفلسطينية، وثلاثية الأندلس التي كان يفترض أن تكون رباعية لولا مسلسل (سقوط غرناطة) الذي لم ير النور حتى الآن، ولا ندري بعد هل حُسم في أمر إنتاجه وعرضه قرار نهائي أم لا.

والآن بعد غياب دام منذ سنة 2005، عاد الثنائي الناجح من جديد هذا العام بضجة لا ندري ما تكون عواقبها، وهل ستؤول في نهاية المطاف إلى ترسيخ

صورة الشائني الناجح أم أنها ستكون رصاصة الرحمة التي ستقضي على ثقة الجمهور به. ولا سيما وأن الجهات المنتجة للعمل، قناة mbc وتلفزيون قطر، هي في الواقع جهات مشبوهة وذات سمعة سيئة عند فئات اجتماعية عريضة، والإسلاميين على وجه الخصوص، وهي جهات - ويجب أن نعترف بذلك - لا يأمنها المسلمون على تاريخهم ودينهم، حتى وكأني بأحدهم يقول بعد أن علم أسماء الجهات المنتجة لمسلسل عمر : "وهذا أول تهمته" !

• تعامل حذر من المخرج حاتم علي :

فضّل المخرج حاتم علي، لزوم الصمت بخصوص مسلسله الجديد (عمر)، وعدم الإفصاح عن أية تفاصيل حوله وحول رؤيته الإخراجية المتعلقة به إلا عند عرض حلقاته الأولى. ومع ذلك فقد تناقلت مواقع الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، لعدة أيام قبل حلول الشهر الفضيل، أنباء مؤكدة عن تجسيد المسلسل لشخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بل قد تنوقلت صورة الفنان سامر إسماعيل الذي أنيط به تجسيد هذا الدور الحساس.

وليس يخفى عن الإنسان البسيط ذلك السيناريو المتكرر الذي يصاحب ظهور مسلسلات تاريخي جديد : موجات غضب عارمة من علماء ودعاة وأشخاص، تقابلها موجات تأييد وترحيب ومباركة، فتاوى بتحريم إنتاج العمل ومشاهدته وتحريم القائمين عليه، تقابلها فتاوى بإجازة العمل من طرف لجنة يترأسها، دائماً، الدكتور يوسف القرضاوي.

ما حدث هذا العام لم يكن استثناءً، وهو أمر لم يخف عن مخرج المسلسل حاتم علي، والذي كان شديد الحذر بشكل واضح، حتى أنه وعلى خلاف عادة

المسلسلات، لم يتم إظهار أي شخصية من شخصياته في شارة البداية، بل لم يتم ذكر أسمائهم إلا في قائمة تظهر في شارة النهاية، فقد لجأ حاتم علي إلى حبس أنفاس المشاهد حتى الظهور الأول للشخصية في الحلقة الأولى، وإضافةً إلى ذلك فقد عمل إلى المسارعة بتقديم رسائل (طمأنة) للمشاهد عبر شارة المسلسل.

فلاحظ أن أول ما يُكتب على الشاشة لحظة بداية المسلسل عبارة البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهو تعبير ذو إيحاء ديني، لا نجده عادة في المسلسلات التاريخية الحديثة، ولم يسبق أن رأيناه في أي من أعمال حاتم السابقة.

وبعد البسملة مباشرة تسرع العبارة التالية في الظهور على الشاشة :

" اعتمد النص والحوار على المراجع التاريخية الموثوقة وراجعته ودققته لجنة من كبار علماء المسلمين. "

إن أول ما قد ينتبه له الملاحظ المهتم عند مشاهدته لشارات المسلسل، كون حاتم علي كان مدركاً تماماً لحجم الجدل القائم حول مسلسله وكذا الطبيعة الشرسة لذلك الجدل، وأنه يرغب أول شيء في دفع التهمة عنه وعن مسلسله، عبر ابتدار المُشاهد بالتأكيد على أن نص المسلسل قد تمت مراجعته وتدقيقه والمصادقة عليه من طرف لجنة ضمت بعض كبار علماء المسلمين، مذكورة أسمائهم في شارة النهاية، وهم :

الشيخ الدكتور : يوسف القرضاوي

الشيخ الدكتور : أكرم ضياء العمري

الشيخ الدكتور : سلمان العودة

الشيخ الدكتور : عبد الوهاب الطريري

الشيخ الدكتور : علي الصلابي

الشيخ الدكتور : سعد العتيبي

وبالعودة إلى الحديث عن شارة البداية، فيذكر أن حاتم علي، أو المسؤول عن الشارة إن لم تكن تلك فكرة المخرج، قد اقتبسها من شارة المسلسل الأمريكي (Game of Thrones)، وفكرتها تعتمد على عرضٍ ثلاثي الأبعاد لخريطة تضم الأماكن التي جرت فيها أحداث العمل، وهي تختلف عن الشارة التقليدية التي تعرض وجوه الممثلين مرتبةً بحسب أهميتهم في العمل، من خلال مشاهد قصيرة مأخوذة من حلقاته.

إننا لا نشاهد أي وجه من وجوه الممثلين في شارة بداية مسلسل عمر، ولا حتى في شارة نهايته، كما لا نستطيع قراءة أسمائهم إلا في شارة النهاية معروضة على شكل قائمة خطية.

ربما لا نستطيع أن نعرف الدافع الحقيقي وراء اختيار كهذا، ولماذا يُلجأ إلى الاقتباس الواضح من عمل أجنبي، وهل كانت شارة البداية تهدف إلى حبس أنفاس المشاهد كي لا يرى عمر بن الخطاب مجسداً إلا في أول ظهور فعلي له في الحلقة الأولى، لكن ما أعتقد أنه هذا الاختيار لم يكن في محله، لا سيما وأن فائدة الشارة في حبس أنفاس المشاهد لا تتجاوز الحلقة الأولى من المسلسل فقط فقط، في حين أن المتابع في بقية الحلقات يجد نفسه مضطراً لمشاهدة عرض ممل يتنقل في مساحة ثلاثية الأبعاد بين عدد من الأماكن والمدن المعنية بقصة المسلسل.

• أسئلة حول موقف لجنة العلماء :

كما هو متعود، وكما سبق وحدث في مسلسلات تاريخية سابقة، يترأس الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي قائمة اللجنة الشرعية المشرفة على التدقيق التاريخي لنصوص مسلسل عمر.

إلا أن المختلف هذه المرة كان متعلقاً بمسألة تجسيد شخصيات كبار الصحابة، والتي جاءت فتوى الشيخ القرضاوي فيها مختلفة ومتناقضة مع فتواه السابقة. فهو رغم كونه من أوائل من أجازوا تمثيل المسلسلات التاريخية وتجسيد بعض الصحابة بضوابط شرعية، إلا أنه استثنى منهم الخلفاء الراشدين وأمّهات المؤمنين وثلاثة فقط من العشرة المبشرين بالجنة، وهم أبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. لكننا الآن نشهد فتوى مختلفة تجيز تمثيل الخلفاء الراشدين جميعاً، وبضوابط معينة.

وهنا مجموعة من الأسئلة التي تتقافز إلى الذهن، بعد أن وقع تضارب شديد في الأنباء والمعطيات المتعلقة بموقف اللجنة الشرعية لمسلسل عمر !

فما تم عرضه في شارة المسلسل يشير إلى أن مسؤولية اللجنة تتمثل فقط في تدقيق النصوص التاريخية، مما جعل البعض ينكر بأن القرضاوي وغيره من أعضاء اللجنة قد أفتوا بجواز تمثيل كبار الصحابة، وهو إنكار خاطئ من وجهين.

الأول أن اطلاع اللجنة على نصوص المسلسل وحواراته سيقودهم حتماً إلى العلم بأن المسلسل يعتزم تجسيد شخصيات الصحابة، أما الثاني فهو تظافر تصريحات مخرج المسلسل وعدد من الممثلين الذين أدوا تلك الأدوار، والذين صرحوا بأن قبولهم للخوض في هذه المخاطرة جاء استناداً منهم على الفتوى الشرعية للجنة العلماء التي صادقت على نصوص المسلسل وأفتت لهم بجواز تجسيد أدوار الصحابة.

وهو ما صرح به بشكل مباشر الفنان غسان مسعود الذي جسد شخصية أبي بكر الصديق، إضافة إلى بعض الممثلين الآخرين.

كما قد كان ملاحظاً تركيز الرأي العام، وبشكل خاص قبل عرض المسلسل وأثناءه، على تجسيد شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يتوقع الكثيرون أن المسلسل لن يكتفي بتجسيد شخصية عمر فقط، بل سيتجاوزها إلى تجسيد بقية الخلفاء الراشدين كذلك.

فقد ظهر أبو بكر الصديق في الحلقة الثانية من المسلسل، وظهوره يعني بالضرورة ظهور عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، رغم ما لهذا الأخير من حساسية مشهورة بسبب الخلاف السني الشيعي، وبسبب أنه من آل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

ورغم ذلك لم تتناول الأقلام الناقدة بتفصيل كافٍ ظهور بقية الخلفاء، بقدر ما تناولت ظهور عمر بن الخطاب بالتحديد، ربما لأنه بطل المسلسل، وربما لأن بقية الخلفاء الراشدين لم يكن لهم من الظهور اللافت ما يكفي لإثارة الانتباه حولهم إلا قليلاً، لكن الأمر المؤكد هو أنه قد تم تجسيد شخصية أبي بكر الصديق وهو أفضل من عمر، وتم تجسيد علي بن أبي طالب أيضاً بصورة تطابق رسوم الشيعة عنه، وهذا ما من شأنه أن يفتح أبواباً كثيرة من الجدل والانتقاد.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد تجرأ حاتم علي على الاقتراب من تجسيد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها، بواسطة إظهار ظلها المنعكس على الجدار في مشهد احتضار أبي بكر الصديق في الحلقة الثانية والعشرين. وتفصيل اللقطة أنها ظهرت في البداية بأسلوب مشابه لأسلوب ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم،

أعني أسلوب عدسة الكاميرا، ثم لما شرع أبو بكر الصديق بإعطائها بعض التوصيات ظهر ظلها منعكساً على الجدار المقابل، وهي تبرز رأسها قائمة به (نعم).

لست أدري هل كان للجنة العلماء موقف من هذا المشهد، وهل أجازوا فعلاً إظهار ظل السيدة عائشة الذي يرسم خطوط وجهها، وهو أمر يقترب من التجسيد، لكن في مطلق الأحوال تظل خطوة كهذه سابقة من نوعها، وشديدة الجرأة في نفس الوقت.

إضافة إلى ذلك، فإن إجازة لجنة العلماء لتجسيد الصحابة جاءت مقترنة بمجموعة من الإشاعات والأخبار الكاذبة التي نُسبت إلى فتوى اللجنة، ثم ليتبين لاحقاً أن لا أساس لها من الصحة.

ومن تلك الإشاعات ما تردد حول اشتراط اللجنة على الممثل الذي يؤدي دور عمر أن يكون حديث العهد بالتمثيل، وألا تكون له أعمال سابقة في الدراما، وأن يتوقف عن التمثيل لمدة تصل إلى خمس سنوات، على اعتبار أن هنالك انتقادات حادة تركز على كون الممثل الذي يؤدي دور الصحابي الجليل، ربما كانت له في الماضي أعمال مسيئة وغير أخلاقية، وربما تكون له في المستقبل القريب أعمال مشابهة، مما يسيئ إلى الصحابي الجليل الذي تترسخ صورته في أذهان المشاهدين، ولا سيما الناشئة منهم، على أنه هو نفسه الممثل الذي قام بأداء الدور.

وإثبات بطلان هذه الإشاعة جاء مبيناً على واقع المسلسل نفسه، لأن ثبوتها على اللجنة يعني وقوعها في تناقض صارخ يتمثل في ظهور بقية الصحابة الكرام لأول مرة في التاريخ، وتحديدًا بقية الخلفاء الراشدين، وعلى الخصوص أبو بكر الصديق الذي هو في عقيدة أهل السنة والجماعة أفضل من عمر بن الخطاب، فالخلفاء يتفاوتون في الفضل بحسب ترتيبهم في الخلافة.

فكيف يخضع دور عمر بن الخطاب لشرط أن يجسد دوره ممثل حديث ؟ في حين يؤدي دور أبي بكر الصديق ممثل قديم له عدد كبير من الأدوار قديماً وحديثاً في المسلسلات التاريخية والمعاصرة ؟

أما عن إشاعة منع الممثلين الذين أدوا أدوار الخلفاء الراشدين من التمثيل لمدة تصل إلى خمس سنوات مقابل تعويضات مالية عن ذلك، فهذا مما رد عليه الممثل سامر إسماعيل بنفسه في المقابلة التلفزيونية التي أجريت معه، كما قد رد عليه المخرج حاتم علي في مقابلة تلفزيونية أخرى، وضح فيها حاتم أن مسألة اختيار ممثل حديث العهد بالتمثيل ولا يملك تاريخاً درامياً لتجسيد دور عمر، هي اختيار إخراجي محض هدفه دعم مصداقية الأداء، ولا علاقة له بأية شروط أو قواعد افترضتها اللجنة الشرعية للمسلسل.

تبقى هنالك مسألة مهمة تفرض نفسها عند التفكير في موضوع إجازة اللجنة الشرعية لمسلسل عمر، وهي ما يتعلق بمدى (نطاق مسؤولية اللجنة).

ما هي الحدود التي تنتهي عندها مسؤولية اللجنة ؟

وما هي الحدود التي (يجب) أن تنتهي عندها مسؤولية اللجنة ؟

هل مهمة اللجنة مقتصرة فقط على ضبط النصوص التاريخية ؟

هل تتحمل اللجنة مسؤولية إجازة تمثيل أدوار كبار الصحابة ؟

إننا عندما نسمع مخرج مسلسل عمر يكثر من الاستناد على إجازة لجنة العلماء للنص التاريخي الخاص بمسلسله، بصفتها عنصراً من العناصر الداعمة لقوته، والضامنة لثقة الناس به، فإن ذلك يقودنا إلى ربط التقييم التاريخي للمسلسل بإجازة

لجنة العلماء لنصه، أي أن أي خلل تاريخي تم رصده في المسلسل فإن من يتحمل القسم الأكبر من مسؤوليته هو لجنة العلماء أكثر من الكاتب والمخرج.

فما الذي قد يحدث إذا اكتُشفت أخطاء تاريخية واضحة في نص المسلسل ؟

وما القول الآن بعد أن اكتُشفت تلك الأخطاء فعلاً ؟!

إن إجازة اللجنة الشرعية للمسلسل لا تؤخذ في معظم الأحيان على محمل الجد من طرف الجمهور المثقف، والذي يجد نفسه مضطراً إلى البحث بنفسه في المراجع التاريخية طلباً لمحاكمة نص المسلسل، وعندما تُكتشف أخطاء تاريخية واضحة، فإن اللجنة الشرعية تكون هي المتحمة للوم والاتهام.

أما إذا كانت تلك الأخطاء مما يقبل تأويلاً فكرياً معيناً، بحيث يُضبط المسلسل متلبساً بانتقاء أو تحريف هدفه خدمة طرح إيديولوجي ما، فإن المسألة إذاً تصبح من قبيل (وراء الأكمة ما وراءها).

وعلى هذا، ينبغي القول بأن لجنة العلماء بإجازتها لنص مسلسل ما، فإنها تكون متحمة بذلك مسؤولية تاريخية وفكرية عظيمة قد تُخضعها يوماً ما لنقد يتخذ شكل المحاكمة.

ومن جانب آخر، نلاحظ أن العاملين على المسلسل يصرون على التأكيد بأن مسؤولية لجنة العلماء مقتصرة فقط على الضبط التاريخي للنص، وبذلك فهي لا تتحمل أية مسؤولية فنية، وهذه نقطة تسترعي انتباهاً خاصاً.

لا أحد ينكر أن الجانب الفني من الدراما التاريخية هو مكّون رئيسي من مكوناتها، وبذلك يكون مرتبطاً ولا شك بالنص التاريخي، وبالرؤية الفنية للمخرج، وإن اقتصر مسؤولية اللجنة الشرعية فقط على تدقيق النص لمن شأنه أن يترك

مساحات فارغة كثيرة يتحرك فيها المخرج والممثلون دون أن يكونوا خاضعين لإشراف هيئة دينية، وذلك يجعل الأمر يبدو وكأن إجازة لجنة العلماء للمسلسل ما هي إلا وثيقة تُستخرج منهم لتبرير عرض المسلسل، ولشراء الثقة في نصوصه، في الوقت الذي لا يكون فيه لتلك الهيئة أي تدخل في الجوانب الفنية للمسلسل، الأمر الذي قد تترتب عنه خروقات وتجاوزات وأخطاء فنية وإخراجية خارجة عن نطاق النص، قد تكون سبباً في تشويه الشخصيات والأحداث ودون أن يكون هنالك أي إشكال في دقة النص التاريخي للمسلسل.

الإخراج السيئ يهدم النص الجيد، وانعدام الوصاية الشرعية على إخراج الدراما التاريخية يفتح المجال للأخطاء الفنية التي قد تكون متعمدة من المخرج أو عن غير عمد منه.

ولكي أضرب مثلاً عن ذلك من مسلسل عمر، أذكر أهمية الالتزام بالأوصاف الشكلية فيما يخص تجسيد كبار الصحابة كما وردت إلينا في المراجع التاريخية، الأمر الذي لم يحدث مع عدد من الشخصيات كعثمان بن عفان مثلاً، والذي تذكر كل المراجع التاريخية في أوصافه أنه كان عظيم اللحية، إلا أنه قد ظهر في مسلسل عمر أقل الصحابة لحية (!!) وهذا في اعتقادي خرق غير مقبول لا تبرره أية اعتبارات فنية، ولو أن نطاق مسؤولية لجنة العلماء كان يشمل الجانب الفني أيضاً لكان من مسؤوليتها الإشراف على بعض التفاصيل الفنية المتعلقة بالمسلسل، ومن أهمها الأوصاف الشكلية لبعض الشخصيات المهمة التي لا يسع المخرج أن ينسفها، على اعتبار أن التناول الإخراجي لشخصيات المسلسل هو بدوره جزء من تناول النص التاريخي الذي تُتطلب فيه الأمانة ويُتحرى فيه الالتزام.

• نقد للموقف السلفي :

يلجأ أنصار تجسيد الشخصيات المقدسة في الأعمال الدرامية، إلى التأكيد على إنسانية تلك الشخصيات، فهم لا يفتؤون يكررون أن تلك الشخصيات مهما بلغت قداستها، فإنها تظل بشراً، ومهما كان لها من الخصائص المميزة فلا بد أن لها من الجوانب الإنسانية الطبيعية ما لا يجعلها مختلفة في تلك الجوانب عن غيرها.

وعلى هذا الأساس لا يجدون مانعاً من تجسيد تلك الشخصيات بواسطة ممثلين يتم تدريبهم وإعدادهم للتصرف بما يتناسب مع مواصفات الشخصية المراد تجسيدها.

وهم بذلك يقفون على النقيض تماماً من أصحاب التيار السلفي، الذين يرفضون رفضاً قاطعاً تجسيد الشخصيات المقدسة من الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم، بل إن منهم من يرفض فكرة التمثيل مطلقاً، ويستشهد بعضهم على هذا الموقف بأن تلك الشخصيات لها من الخصائص والمميزات ما يستحيل توافره في غيرها، ولذلك لا يوجد أي ممثل على وجه الأرض بوسعه أن يقترب في أدائه ولو قليلاً من حقيقة الشخصية المراد تجسيدها، بل يعتقدون بأن تجسيد تلك الشخصيات له تأثير عكسي، بحيث أن الممثل هو ولا بد مسيء إلى الشخصية مشوّه لها ولصورتها، وبذلك يكون عمله في التجسيد، وعمل المخرج الذي أشرف عليه، جريمة في حق الدين والتاريخ والتراث والسلف الصالح.

وبين هتين الفكرتين يدور معظم الجدل القائم حول موضوع تجسيد الشخصيات المقدسة، وهو ما سأقوم بإذن الله ببسطه بشيء من التفصيل.

لكن قبل ذلك وجبت الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلق بإنسانية الشخصيات، وموقف التيار السلفي منها. فالسلفيون كان لهم النصيب الأوفر من الاتهام بالتطرف في التعامل مع الشخصيات المقدسة، والمفارقة الطريفة في الأمر هي أن تهمة التطرف قد لحقتهم من الجهتين معاً ! فالسلفيون متهمون بالغلو في تقديس الشخصيات من بعض الفئات، كالحداثيين وغيرهم، ومتهمون بالجفاء تجاهها من فئات أخرى، ونخص بالذكر بعض الطرق الصوفية الغالية التي تتجاوز الحد في تقديسها للشيخ والأولياء ومن يعتقدون أنهم أولياء، فنجدهم يشدون الرحال إلى الآثار والقبور ويتوسلون بها وبآثار أصحابها، وربما جاوز بعضهم الحد في ذلك، وهؤلاء بغلوهم في ابتداع صنوف التقديس لشيخوخهم يتهمون التيار السلفي بالجمود والجفاء تجاه أولئك الأعلام، وبأنهم يعتبرون صحابة النبي والسلف الصالح وأولياء الله مجرد أشخاص عاديين ليست لهم خصوصية تميزهم عن غيرهم. وهذه تهمة تتناقض تماماً مع تهمة بعض المتحررين من أصحاب الموقف الآخر، والذين يتهمون التيار السلفي بالمبالغة في تقديس الشخصيات التاريخية من صحابة وآل بيت وسلف صالح.

وهذا الموضوع إن كان ليس موضعاً لبحثنا هنا، إلا أن من الواجب علينا أن نستبعد كافة الآراء المتطرفة في تناولها للشخصيات، سواء تلك التي تتطرف في تقديسها كبعض الطرق الصوفية، أو تلك التي تتطرف في امتهاها كبعض العلمانيين والملاحدة ومن نحى نحوهم.

هذا في الوقت الذي أؤكد فيه على ضرورة تقديم حسن الظن في الطرفين، أعني المؤيدون لتجسيد الشخصيات والمعارضون له، فالآراء السلفية برفض التجسيد هي نابعة حقاً من الحب لتلك الشخصيات، ومن سد ذرائع الامتهان والتشويه لأولئك

الأعلام الأفاضل، خشيةً من أن يحصل، بل ولعله، مع الأسف الشديد، قد حصل فعلاً في غير ما عمل تاريخي سابق.

وكذلك، من الجهة الأخرى، لا نستطيع التسرع في الحكم على أداء ممثل ما لإحدى الشخصيات قبل الاطلاع عليه اطلاعاً كافياً متعمقاً، ومن أسفٍ أننا قرأنا تهماً شنيعة موجهة لأشخاص الممثلين وأدائهم قبل حلول شهر رمضان المبارك، أي قبل عرض المسلسل أصلاً.

وهذا ما يدفعنا للحديث بشكل دقيق عن طريقة عمل العقل السلفي، وكيف يتكون موقفه تجاه هذا الموضوع.

قلنا بأن السلفيين ينطلقون في إصدارهم للحكم الصارم برفض التجسيد من حبهم للشخصيات الإسلامية، وسداً لذرائع الامتهان والتشويه، لكن ما سبب عدم ثقتهم بالمنتجين للدراما التاريخية؟ ولماذا يصدرّون مسبقاً، وبصرامة متناهية، حكمهم القاطع برفض تجسيد الصحابة دون استعداد منهم للحوار والمناقشة؟

في اعتقادي أن هناك سببين للموقف السلفي الصارم، وهما :

* أولاً : ترجيح نظرية المؤامرة، فالعقل السلفي لا يثق بالإعلام العربي ولا بالقائمين عليه من منتجين وكتاب ومخرجين وممثلين، بل قد يذهب إلى الاعتقاد بأن القائمين على الإعلام هم متآمرون على الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة، وأن تلك المسلسلات التاريخية هادفة إلى تشويه التاريخ الإسلامي ورموزه وأعلامه. وبذلك فأي عمل يأتي منهم هو مرفوض قطعاً، ومتهم في نواياه وأهدافه.

وانطلاقاً من هذا يحرم السلفي على نفسه، وعلى محيطه، أي تعامل مع المواد المعروضة في ذلك الإعلام الفاسد، ويكتفي بالابتعاد عنها مطلقاً، والدعوة إلى ذلك.

نظرية كهذه، ولأنها نظرية، تحتاج إلى الأدلة الملموسة لأجل إثباتها أو نفيها. وهنا أقول، من وجهة نظري الخاصة، بأن العقل السلفي معذور في نحوه هذا المنحى عذراً كاملاً! سواء أضحّت النظرية أم لم تصح. فما يعرض في إعلامنا من مواد مسمومة تهدف، بشكل مباشر وغير مباشر، إلى زعزعة عقيدة المسلمين في دينهم وتراثهم وأعلامهم، ومراودتهم على مبادئهم وأخلاقهم، وتطبيعهم على تقبل الأفكار والمفاهيم التغريبية الوافدة لنا من عند أعدائنا، هو أمر من شأنه أن يزعزع ثقة المسلمين في ذلك الإعلام المشبوه، وفي كل ما يقدمه من أعمال جديدة حتى لو كانت مسلسلاً تاريخياً، بل حتى لو كان مسلسلاً عن الفاروق عمر، حتى يثبت العكس!

وهنا أتساءل وحُقّ لي ذلك : هل ثبت العكس ؟

وقبل ذلك أتساءل، وحُقّ لي ذلك أيضاً : هل عمل الإنسان السلفي لإحقاق الحق ؟ وإلى أي حد ؟ هل هو قرار صائب أن يعزل السلفي نفسه عن أهم المستجدات الإعلامية كمسلسل عمر ؟ وهل سيكون منصفاً - والسلفي يحب الإنصاف - عندما يصدر حكماً على عمل لم يشاهده ولم يطلع عليه ؟

* ثانياً : الثقة المهترئة في الكفاءة، فالرأي السلفي، إضافة إلى اتهامه لنوايا القائمين على الدراما التاريخية، فهو يتهم كفاءتهم أيضاً، ويعتبرهم غير مؤهلين علمياً وفكرياً لكتابة التاريخ وعرضه لعامة الناس على شكل مسلسل تلفزيوني. بل قد يقف موقف الرفض لأسلوب العرض أصلاً، وهو التمثيل والدراما التلفزيونية أو السينمائية، ويفضل بدلاً عنها الأسلوب التقليدي في التعريف بالشخصيات، عبر الكتب والمحاضرات المسموعة والمرئية.

ورغم ارتفاع كثير من الأصوات المشجعة لأسلوب العرض الدرامي، والتي تستشهد بظاهرة واقعية لا يسع أحداً إنكارها، وهي انتشار العزوف على القراءة والاستماع، ولا سيما من طرف الشباب، والإقبال بدلاً من ذلك على الأعمال الوثائقية المصورة بقوالب حديثة، إلا أن الرأي السلفي لا يولي كثير اهتمام بهذه الأصوات، ويقف مصراً على رأيه القديم، متشبثاً بأسلوب العرض التقليدي للتاريخ لا يرضى عنه بديلاً.

وَحُقُّ لنا هنا أن نتساءل أيضاً، هل السلفي معذور عندما تهتر ثقته بكفاءة القائمين على الدراما ؟ وهل ثقته المهزوزة هذه مبنية على أساس صحيح، أعني وثائق ملموسة ؟

مرة أخرى، يؤسفنا القول إن الجواب هو نعم.

فما سبق إنتاجه من دراما تاريخية قديمة وحديثة، نلاحظ أنه مليء بالثغرات والأخطاء متفاوتة الفداحة، وعلى جميع المستويات، بدءاً من النص التاريخي والحواري، وانتهاءً بالأداء التمثيلي وإخراج الصورة. فكثير من تلك الأعمال السابقة قد قدمت الشخصيات التاريخية تقديمًا مشوهاً، لا يهمننا هنا ما إذا كان ذلك متعمداً أم لا، لكن الصورة التي تقدمها معظم المسلسلات لا يمكننا الجزم بأنها أمينة تماماً، وأن أشكال الناس ولغتهم وحياتهم في تلك الفترات الماضية كانت بالفعل على ذلك النحو المقدم في المسلسل.

ففي كثير من تلك المسلسلات نلاحظ وجود لغة ركيكة جداً، هي أقرب إلى اللغة العربية المعاصرة منها إلى اللغة العربية القديمة التي تكلم بها أصحاب تلك العصور، كما قد نلاحظ أن أشكال كثير من الشخصيات، ولغة جسدها، وانفعالاتها الخاصة هي في الواقع لا تليق بالشخصية ولا بالموقف، كأن تظهر بعض النساء

بملامح عصرية جداً تطغى عليها علامات النمص الواضح والماكياج المعاصر، وربما ظهرن غير محجبات في سياق تاريخي كان يستحيل فيه على المرأة أن تخرج أمام غير المحارم من دون حجاب، كما قد تظهر بعض شخصيات الرجال غير ملتحية، حلقة تماماً، أو تضع لحي ذات أشكال عصرية جداً لم تنتشر سوى في الآونة الأخيرة بين الشباب والرجال، وذلك في سياق تاريخي لم يكن المسلمون فيه ولا العرب يخلقون لحاهم.

كل هذا فضلاً عن بعض الأخطاء التاريخية التي رُصدت في عدد من المسلسلات، سواء في الأحداث أو في الحوارات، ناهيك عن الأخطاء اللغوية واللفظية التي يصل بعضها حد الفداحة.

وأسوأ من كل هذا، أن تُرصد أخطاء في تلاوة القرآن الكريم ! وهذا أفدح الأخطاء التي لا يمكن أن تُقبل مطلقاً تحت أي ظرف وفي أي سياق، ويشتد الأمر عندما تُرصد تلك الأخطاء في مسلسل تاريخي !

وأسوأ هنا بعض الأمثلة المقتبسة من فيديو، هو بالمناسبة دعوة لمقاطعة مسلسل عمر، بناءً على أخطاء في تلاوة آيات من القرآن الكريم رُصدت في مسلسلات تاريخية أخرى سبق عرضها ! وهذا مما يؤكد أن ثقة الجهات الدينية في القائمين على المسلسلات التاريخية مهزوزة تماماً، وحُقوق لها أن تهتز :

في مسلسل خالد بن الوليد، تقول إحدى الشخصيات : "وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا، لكنه لآياتنا عنيدا. والصواب أن يقال : "ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنه كان لآياتنا عنيدا".

وفي مسلسل القعقاع بن عمرو التميمي، تقول إحدى الشخصيات : "سبح باسم ربك الأعلى". والصواب : "سبح اسم ربك الأعلى".

وفي مسلسل الجماعة، تقول إحدى الشخصيات : "خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين". والصواب : "خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين".

والحق أن هذه الأخطاء الفادحة لا يمكن أن يكون مصدرها النص التاريخي، بل لا شك في أن الآيات مكتوبة بشكل صحيح في الأوراق التي يحفظها الممثلون، لكن مصدر الخطأ هو من الممثل نفسه الذي يكون قد أساء الحفظ، ولأن معظم الممثلين، والحالة هذه، لا يملكون ذلك الحس الذي يميزون به بين الآية الصحيحة والخطئة، فإنهم لم ينتبهوا لخطئهم، وكان المفروض أن يتم الانتباه لمثل هذه الأخطاء الكارثية من طرف المخرج وغيره ممن يعالجون المشاهد بعد تمثيلها، لكن يبدو أن جميع هؤلاء لا يحفظون الآيات (!!!) أو لا يملكون تلك الملكة التي يميزون بها بين الصواب والخطأ، وهذه مشكلة كبيرة، وأما إن كان تم الانتباه لهذه الأخطاء بعد تمثيل المشهد ثم تجوز عنها وتُسمح لها بالمرور، فتلك مشكلة أكبر وأعظم !

وفي مطلق الأحوال فإن وجود أخطاء في الآيات القرآنية، في أي حرف منها أو حركة على حرف، هو لا يمكن أن يُعذر في حال من الأحوال، ويستحيل شرعاً وعقلاً أن يُقبل لا في المسلسلات التاريخية ولا العصرية ولا في أي مادة إعلامية أو غير إعلامية كيفما كان نوعها.

كل ما سبق ذكره من شواهد دفع بالرأي السلفي إلى اتخاذ أحكامه الصارمة ضد الدراما التاريخية، وكان من الطبيعي أن يزداد الموقف حدة وصرامة ضد مسلسل عمر، وهو الذي يقوم لأول مرة بتجسيد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. إلا أن

ذلك لا ينبغي أن يمنع من توجيه بعض الانتقادات لهذا الموقف السلفي، أفصلها على النحو الذي يلي :

* الحكم المتسرع، وعدم جمع المعلومات الكافية :

لم يتمهل السلفيون، علماء ودعاة وأفراد، في شن حملتهم الداعية لإيقاف مسلسل عمر ومقاطعته، مستندين في ذلك على الأسباب التي سبق ذكرها، بل وعلى أخطاء حدثت في مسلسلات أخرى كتبها وأخرجها آخرون !

ومما يلفت النظر في دعوات السلفيين انطلاقتهم من حكم مسبق ومعتم على كل عمل تاريخي جديد، لم يكلفهم مزيداً من البحث عن معلومات دقيقة حول المسلسل وكتابه ومخرجه وممثليه، فنلاحظ في عدد من دعواتهم معلومات مغلوطة، وأخرى مبنية فقط على الظن دون دليل صحيح، وهذا في حقيقة الأمر مما لم يُعهد قط عن السلفيين المعروفين بتحريهم للدقة الشديدة في استقصاء المعلومات وضبط ألفاظها ومعانيها وإصدار الأحكام المستنبطة منها استنباطاً منهجياً.

فلم نجد في دعوة أحدهم ما يدل على معرفة بكاتب نص المسلسل الدكتور وليد سيف، وأعماله السابقة، وشمعته لدى فئات المجتمع سواء من العوام أو المثقفين، فلا ينبغي إغفال أن كون المسلسل من تأليف الدكتور وليد سيف هو بحذ ذاته أمر يستدعي بعض التوقف، فليس وليد كغيره من الكتاب، ويعرف هذا كل من تابع أعماله السابقة.

كما نسمع بعضهم يقول بأن شخصية الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه سيقوم بتجسيدها ممثل فاسق له في الماضي أدوار ماجنة، وهذا غير صحيح،

فالممثل الذي أدى دور عمر هو حديث التخرج وليست له أعمال سابقة في الدراما، وهذا يدل على ضعفٍ في جمع المعلومات.

والضعف في جمع المعلومات يقود حتماً إلى إصدار حكم مهتز غير دقيق، والحكم المهتز غير الدقيق لن يؤخذ على محمل الجد، ولن يكون له صدى في أسماع فئات كبيرة من المجتمع المسلم ولا سيما المثقفة منه.

وهذا ما ثبت مع الأسف الشديد في تصريحات الدعاة السلفيين ومناداتهم بمقاطعة المسلسل، فمن يستمع إلى خطابهم سيلاحظ أنهم ينطلقون فقط من بعض العموميات والأحكام المسبقة، دون أن تكون لهم رؤية واضحة عما يحدث فعلاً، ودون أن تنبني أحكامهم على معلومات صحيحة موثقة تدل على أنهم تحروا جمع الكثير من المعلومات المتعلقة بالمسلسل والقائمين عليه.

* حول منطلقات منع التجسيد :

يقول أنصار تجسيد الشخصيات الإسلامية المقدسة، بأن الأصل في الأشياء الإباحة، وأنه ليس هنالك آية قرآنية ولا حديث نبوي شريف يحرم تجسيد الصحابة الكرام !

وهذا استدلال طريف لعله يكون مضحكاً بعض الشيء ! ففي العصر النبوي لم يكن هنالك تمثيل، ولم يكن هنالك إنتاج درامي أو سينمائي، ولذلك فهذه القضية لم تكن مطروحة أصلاً في ذلك الوقت، فهي إذاً من المستجدات الطارئة على عصرنا الحديث، والتي ييث فيها علماء الإسلام بناءً على منطلقاتهم الفقهية واجتهاداتهم القائمة على الموازنة بين المصالح والمفاسد، فكانت الفتوى بتحريم تجسيد الأنبياء

والصحابة وآل البيت من السلفيين ومن الأزهر الشريف نتيجة لتلك الاجتهادات، وهي الفتوى التي لم تتغير حتى يومنا هذا رغم مرور عشرات السنين.

ولم تبخل الجهات المحرمة للتجسيد ببيان أسبابها ومنطلقاتها لذلك التحريم، وهي في مطلق الأحوال عائدة لاجتهاد العلماء الأفاضل تحريماً منهم لصون الرموز الإسلامية عن امتهان من لا يؤمنون عليها، وسداً لبابٍ لو فُتح على مصراعيه فقد يؤدي بنا إلى رؤية ما لا يسر.

وأسباب رفض التجسيد بعضها مقنع ومقبول، والبعض الآخر يحتاج إلى النقاش المفصل.

أما الأسباب المقنعة فهي سد الذريعة، وصون الرموز عن مظنة الامتهان، فالمخرجون ليسوا كلهم مؤمنين على التاريخ وشخصياته الإسلامية المقدسة، ونخشى إن فتح هذا الباب أن يصير تجسيد الرموز كلاً مباحاً يتجرأ عليه كل من هب ودب ممن لا يملكون المؤهلات الكافية للخوض في نطاقات على هذا المستوى الحاد من الحساسية الدينية والفكرية.

فما يقوله السلفيون حول ترسخ صورة الشخصية في ذهن المشاهد هو أمر كائن، ولا يمكن إنكاره، وأي تجسيد مشوه لرمز من رموز الإسلام سيكون جريمة حقيقية لا يمكن غفرانها، فالمسألة هي فعلاً بالغة الحساسية ولا يصح أبداً أخذها ببساطة وتساهل.

وأما ما يحتاج في الموقف السلفي من التجسيد إلى نقاش مفصل، فهو منطلقاتهم المتعلقة بذات الممثل الذي سيقوم بتجسيد الدور، فإننا نسمع السلفيين دوماً يقولون، ويكررون، بأنهم يرفضون أن يقوم ممثل فاسق وماجن بتجسيد دور

صحابي جليل، لأن ذلك الممثل (الفاسق) يستحيل أن يكون له من الهبة والسمت ما يليق بحجم الشخصية التي يقوم بأداء دورها، كما أن ذلك الممثل قد تكون له أدوار غير أخلاقية في الماضي، وقد يمثل أدواراً مآجنة في المستقبل، وهي أدوار لا تشوه من صورة الممثل إلا بقدر ما تشوه من صورة الشخصية الإسلامية التي قام بتجسيدها.

وهذه الفكرة ليست صحيحة بالضرورة، وذلك من أوجه أذكرها تباعاً :

1 - لا يصح تعميم إطلاق صفات الفسق والمجون والفساد الأخلاقي

على كل الممثلين دون تبيين، فلربما ظلم أحدهم وهو بريء. وإنا إن كنا متفقين على أن عالم التمثيل هو في الغالب عالم غير نظيف، ويحوم حوله من الشبهات الشيء الكثير، إلا أن تعميم الحكم على ممثلين لا نعرفهم، ولم نتابع أعمالهم السابقة، ولا نملك فكرة عن حياتهم الخاصة قد يقودنا إلى ظلم أحدهم عن غير قصد. والأخذ بالظنة ليس من سمات السلفي الذي يتحرى الحق دائماً وأبداً.

فالسلفي الذي يقول بأن ممثلين فسقة مآجنين سيقومون بأداء أدوار الصحابة، نسأله ونقول له : هل عندك معلومات دقيقة عن أولئك الممثلين ؟ هل اطلعت على أعمالهم السابقة كلها ؟ هل عندك بينة ملموسة على أن لهم أدوار فسق ومجون سابقة ؟ هل عندك اطلاع على حياتهم الشخصية الخاصة بعيداً عن التمثيل ؟

ولا يهمنا هنا هل السلفي محق في اتهامه أم لا، وهل الممثل هو فعلاً ممثل مآجن أم لا، فقد يكون، وقد لا يكون، إنما أتحدث هنا فقط عن مبدأ تعميم الحكم بناءً على الظنون دون اطلاع كافٍ ودون أية أدلة.

وفي هذه الحالة أسأل أيضاً : هل لو ثبت لك أن صفحة الممثل بيضاء تماماً، وأن تاريخه الفني، بل وسيرته الشخصية أيضاً، بريئة تماماً من كل ما يחדش الأخلاق، هل ستقبل إذاً أن يقوم بتجسيد أحد أدوار الصحابة ؟

ويحضرني هنا موقفان مؤسفان لاثنتين من الدعاة، أذكرهما ضرباً للمثال.

فالموقف الأول هو لداعية لا أسميه، وقفت محارباً مسلسل عمر داعياً إلى مقاطعته، فوصف في معرض كلامه الممثل الذي سيؤدي دور عمر بـ (النجاسة)، وقال ما معناه "كيف نقارن النجاسة بالطهارة ؟!"

إننا نتفق دون شك على أن عمر رضي الله عنه طهارة، لكن من أين لأحدنا الحق في أن يصف مسلماً بصفة النجاسة بناءً على الظن بأنه فاسق ؟! وهل كان يتوقع هذا الداعية أن الممثل لو حصل يوماً وسمع مقالته فيه، أن يأخذ فكرة حسنة عن الإسلام والدعاة الإسلاميين ؟!

والموقف الثاني هو أيضاً لداعية آخر لا أسميه، تكلم هو الآخر في رفض مسلسل عمر والدعوة إلى مقاطعته، واستنكر كيف يقوم ممثل كان بالأمس يؤدي أدواراً فاحشة بأداء دور واحد من خيرة الصحابة الكرام، ووصف في معرض كلامه الممثل بـ "الزاني" ! ويقصد (الممثل) بصفته العامة وليس أحداً بعينه، فسبحان الله كيف يقع داعية إسلامي فاضل في مثل هذا المنزلق، فرمي الإنسان إنساناً آخر بصفة الزنا هو قذف له، فأين للداعية بالدليل على أن الممثل زانٍ ؟ إننا لا نعلم بين مشاهير الممثلين العرب من قد مثل منهم مشهداً كاملاً لفاحشة الزنا بحيث يثبت الفعل عليه، على كثرة ما اجترحوه من آثام كثيرة بتمثيلهم لأدوار الفسق والمجون، إلا أن لإثبات الزنا بالذات شروطاً وقواعد صارمة حددتها الشريعة، فمن أين لهذا الداعية الحق في أن

يرمي إنساناً، مسلماً كان أو كافراً، بفاحشة الزنا؟! فهلاً أتى عليه بدليل حجة، أو بأربعة شهداء؟!

2 - الأدوار الأخرى للممثل كيفما كان نوعها، وهيئته الخاصة أيضاً، ليست مانعةً له من أن يحسن تجسيد أدوار الصلاح. وهذا واقع ومشاهد، ومناطه كون الممثل ممثلاً، تخصصه الذي درسه في المعهد، ومهنته التي يزاولها هي تقمص الشخصيات المختلفة اختلافاً قد يكون كلياً، وهناك من الممثلين من له قدرة فائقة على تقمص تفاصيل الدور بإتقانٍ متناهٍ كيفما كان ذلك الدور، خيراً أو شراً، صالحاً أو فاسداً، تقياً أو فاجراً، فذلك تخصصه.

ولذلك، فالتابع للمسلسل التاريخي يعيش مع الممثل ليس بصفته الشخصية، لكن بصفته متقمصاً للدور الذي يجسده، وغالباً ما ينسى تماماً أدواره الأخرى، بل ربما لا يكون مُشاهداً لها أصلاً.

ويستثنى من ذلك طبعاً بعض المهووسين السطحيين بالممثلين وتتبع أحوالهم وأدوارهم وأخبارهم، وهؤلاء في عموم الأحوال لا يهتمون كثيراً بالمسلسلات التاريخية لأنها لا تلائم اهتماماتهم السطحية تلك، في حين أن عموم المهتمين بمتابعة المسلسلات التاريخية طلباً لما فيها من فائدة، ليس لهم كثير انشغال بغير من مسلسلات التفاهة والانحطاط.

وهنا، لا أتردد أبداً في القول بأن المهم في تجسيد أي شخصية من الشخصيات هو الكفاءة، والكفاءة وحدها. وإن ممثلاً ماجناً، بل حتى كافراً، إن كان متقناً، فإن بوسعه أن يجسد دور الشخصية الصالحة بشكل أفضل وأبعد عن التشويه من الممثل المسلم الصالح غير المتقن، والذي قد يتسبب عدم إتقانه للتمثيل بتشويه الشخصية والإساءة إليها.

ولأضرب مثلاً على ذلك، لدينا الممثل أنطوني كوين الذي قام أكثر من مرة بتجسيد شخصيات هي من صلب تراثنا الإسلامي، مع العلم أن أنطوني كوين غير مسلم، إلا أنه مع ذلك قد أتقن أدواره بشكل قد يعجز عنه الممثلون المسلمون أنفسهم، ومازلنا نذكر كيف تفاعلنا مع أدائه الرائع لدور أسد الصحراء عمر المختار، وكيف عشنا مع الشخصية وتعاطفنا معها تعاطفاً انتهى بزرع بذرة جديدة من بذور قضيتنا الإسلامية في دواخلنا، وأتحدى أي شخص أن يرصد في أداء أنطوني كوين لشخصية عمر المختار أي تشويه أو امتهان لتلك الشخصية العظيمة.

ولدينا أيضاً تجسيد الفنان المصري نور الشريف لدور عمر بن عبد العزيز، بطريقة عرّفت العديد من المسلمين على سيرة ذلك الخليفة العادل وحببتهم فيه دون أن نسمع أي حديث عن تشويه أو امتهان لتلك الشخصية العظيمة، هذا مع العلم أن لنور الشريف عدداً من الأدوار الماجنة قبل ذلك المسلسل وبعده.

وعلى النقيض من ذلك، لا يخفى على أحد حجم التشويه الذي تعرض له مؤسس جماعة الإخوان المسلمين حسن البنا رحمه الله، بعد أن تم تجسيده في مسلسل (الجماعة) من طرف الممثل الأردني إياد نصار وهو مسلم.

وهذا مما ينهض دليلاً على أن سيرة الممثل بل وحتى ديانته هي ليست بالضرورة عاملاً من عوامل الفشل في تجسيد دور من أدوار الصلاح. والأمثلة في هذا الصدد كثيرة.

3 - الهيئة الحقيقية للممثل لا تكفي للحكم المسبق على أدائه في

عمل تاريخي. وهنا نتحدث عن موضوع (الهيئة والسمت)، إذ نلاحظ أن بعض الرافضين لفكرة تجسيد الصحابة قد عمدوا للاستشهاد على رفضهم بإحضار صور للممثلين في أشكالهم الحقيقية، أو في أدوار أخرى لمسلسلات عصرية، ويقولون

(انظروا من سيمثل أدوار الصحابة!)، وغالباً ما يظهر الممثلون في تلك الصور بملابس عصرية، بل قد تكون في بعض تلك الصور شيء من الميوعة أو التهريج أو اللاأخلاقية.

ما يعتقده السلفيون ومن يرى رأيهم، أن ممثلين بتلك الهيئة يستحيل أن يكون لهم من السمات ما يؤهلهم لتجسيد أدوار الصلاح، وأغلب الظن أنهم لم يطلعوا على الكثير من العروض التمثيلية، بل ربما لم يطلعوا على أي منها أساساً، وهم بذلك لا يدركون قدرة الممثل المتقن على تقمص الدور، ولا قدرة المخرج على صناعة شخصية صالحة بتفاصيلها الدقيقة، وحمل الممثل على تقمصها بإتقان متناه.

إننا نتحدث هنا عن المفهوم المسمى بـ (السمت).

قد نستطيع تعريف السمت، والحديث هنا عن العمل التاريخي، بكونه خلاصة صفات الشخصية المكوّنة من صورةٍ ونبذة صوتٍ وحرّكة، وهي أمور بالإمكان صناعتها من طرف المخرج البارِع والممثل المتقن، فالمخرج يرسم صورة السمت للشخصية الصالحة بتفاصيلها، والممثل يقوم بتنفيذ تلك الصورة وأدائها بطريقة لا تخالف ما وضعه المخرج.

وللشخصية الصالحة عموماً صفات متعارف عليها، قد تختلف باختلاف الشخصية نفسها، إلا أن المخرج الأمين بوسعه أن يرسمها بشكل لا يختلف مع المراجع التاريخية، ولا يسيئ إليها في نفس الوقت، وعمدة ذلك أداء الممثل للدور هل أتقنه أم لا.

والممثلون في المسلسلات التاريخية يتم إعدادهم تغييرهم، وتبديل صفاتهم الشكلية بشكل كامل، حتى لا تكاد تصدق أن الممثل في دوره التاريخي هو نفسه

الممثل في هيئته الطبيعية، وذلك التغير يشمل كافة صفات الشخصية المكوّنة لذلك (السمت).

فعلى مستوى الصورة، فإن الممثل لن يمثل دوره التاريخي بملابسه العصرية وشكله الطبيعي، بل يتم إلباسه ثياباً خاصة، وعمامة، وشعراً مستعاراً، ولحية، وقد يتقلد سيفاً إن كان مقاتلاً، وهكذا..

وعلى مستوى نبرة الصوت فإن الممثل لن يمثل دوره التاريخي بلهجته العامية، بل سيتكلم بلغة عربية فصحي، وبنبرة خاصة تفرضها عليه طبيعة الشخصية التي يقوم بأدائها.

وعلى مستوى الحركة، فإن الممثل في المسلسل التاريخي يتصرف ويتحرك طبقاً لطبيعة الشخصية التي يقوم بأدائها.

الإخلال بأحد هذه العوامل الثلاثة، سواء من المخرج أو من الممثل أو منهما معاً، سيقود حتماً إلى تشويه الشخصية التاريخية، في حين أن إتقان العمل منهما معاً سيعطي الشخصية سمته الذي تستحق.

ما أريد أن أؤكد عليه هنا، هو أنه بدلاً من أن نحضر صوراً للممثلين في هيئاتهم الحقيقية، ونسيئ الظن بحسن أدائهم للشخصيات التاريخية بناءً على تلك الصور، سيكون أفضل نزاهةً وأكثر إنصافاً وأعدل حكماً، أن نطلع على الممثلين في شخصياتهم التي يؤدون أدوارها، وأن نفحص أشكالها التاريخية ونبرات صوته وطريقة تصرفها، ثم نحاكم الممثلين بناءً على أدائهم للشخصية التاريخية بعينها، وليس بناءً على صور لا علاقة لها بالعمل لا من قريب ولا من بعيد.

4 - الموقف السلبي بعد عرض المسلسل. إننا إن كنا نتفق مع الرأي

السلفي في إساءة الظن بنوايا القائمين على الدراما التاريخية عموماً، والمثيرة للجدل منها خصوصاً، وإن كنا لا نثق ثقة تامة بكفاءة أولئك القائمين على تلك الأعمال، إلا أن الموقف السلبي قبل عرض المسلسل، وهو الدعوة إلى المقاطعة، وبعد عرض المسلسل، وهو الصمت التام، لن يفيد شيئاً في تقرير حقيقة أو إحقاق حق أو إدانة ظالم أو إنصاف مظلوم.

فالسلفيون يكتفون بالدعوة فقط إلى مقاطعة المسلسل وعدم مشاهدته، معتمدين على أسبابهم التي لا يسع أحداً أن ينكر بأن رصيدها من الإقناع ضئيل جداً، وهي دعوة لن تجد لها صدى سوى عند فئات محددة من المسلمين، في المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، وعند أفراد قلائل في غيرها من أتباع التيار السلفي، ولا يمكن لعاقل يعرف ما يدور في الواقع أن ينكر أن فئات عريضة من الشعوب المسلمة لا تلزم نفسها بدعوات المقاطعة، وهي ستتابع المسلسل بشغف شديد، يستوي في ذلك المؤيدون لفكرة التجسيد وحتى المعارضون لها أيضاً.

دعوة المقاطعة هي دعوة محدودة جداً، وسلبية جداً، والاستجابة لها تظل قليلة إلى حد كبير، وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار من طرف الدعاة السلفيين، واتخاذ مواقف أكثر إيجابية في التعامل مع موضوع المسلسل.

وليس يعني ذلك في أي حال من الأحوال أن عليهم تغيير موقفهم تجاه تجسيد شخصيات الصحابة، بل المرجو منهم فقط تطوير لغة خطابهم بطريقة تجعل المستمع لهم يحس بأنهم يملكون إماماً كافياً بالموضوع الذي يثُنون فيه.

إن الموقف السلفي الراض لفكرة التجسيد يقوم على أسس فقهية واجتهادية معينة، تُحترم ولا شك، لكن ذلك لا يسلبنا الحق في التعبير عن انتقادنا للموقف

الصامت أثناء عرض المسلسل وبعد عرضه، فهم بذلك الصمت يتكون المسلمين عرضة لما يقدمه المسلسل، لخيرته وشره، لصوابه وخطئه، لفوائده وسمومه، دون أن نجد منهم أي تدخلات جادة للانتقاد والتصحيح وبيان الحقائق إلا ما كان من بعض المتطوعين الأفراد الذين ينشطون لنشر بعض ملاحظاتهم وانتقاداتهم في المدونات الشخصية والمنتديات الحوارية.

يحتاج مسلسل عمر إلى قراءات نقدية، وإلى تدقيقات تاريخية ولغوية على مستوى النص والصورة معاً، ويحتاج المسلمون في العالم إلى معرفة مواقف العلماء مما عرض في المسلسل وليس من فكرته فقط. والسلفيون لهم من سعة العلم والقدرة على التدقيق التاريخي واللغوي ما يجعلهم قادرين على وضع محاكمات مفيدة وعادلة للعمل، وهذا ما لا نراه منهم مع الأسف الشديد.

ولعل من المفارقة المؤسفة أن نلاحظ بأن السلفيين هم الأكثر اهتماماً بالرد على المخالفين لهم في العقيدة والفكر، ولا ننفك نجد لهم دروساً ومحاضرات ومقاطع فيديو ورسائل صوتية ومصورة في الرد على هذا المخالف أو ذاك، كما لا ننفك نجد لهم كتباً كثيرة في الرد على المذاهب والأفكار المخالفة، إلا أننا لا نجد لهم أي جهود تستحق الذكر في التعليق على ما يقدم عبر وسائل الإعلام من مواد درامية تاريخية.

إن مما لا يمكن إنكاره أن الدراما التاريخية باتت تشكل وسيلة إعلامية وثقافية، وقناة تواصل تمتد لتنتشر على نطاق أوسع بكثير مما تصل إليه الكتب والمحاضرات، فإذا كنا نشككي من كون المسلمين قد عزفوا على قراءة الكتب والتحلق حول أهل العلم، فإن من المؤكد أنهم يتحلقون حول كل مسلسل تاريخي يحكي حقبة زمنية معينة أو سيرة لشخصية ما. وهذا مما يجدر بالدعاة السلفيين الانتباه له والتعامل معه تعاملًا موازياً لتعاملهم مع الكتب والمقالات والتصريحات المصورة.

كل مسلسل التاريخي هو كتاب مرئي، يُحتمل فيه نبل الهدف وحبثه، وفيه من الصواب والخطأ، ومن أمانة النقل وتدليسه، ما يحتاج إلى بيان وتوضيح.

بناءً على كل هذا، أؤكد على ضرورة أن ينزل الدعاة السلفيون إلى الميدان، وأن يباشروا هذه المسلسلات التاريخية بأنفسهم، وأن يتحفونا بقراءاتهم النقدية وتحقيقاتهم التاريخية والشرعية واللغوية التي نحن أشد ما نكون حاجةً إليها، في زمنٍ ارتقت المشاهد الدرامية فيه إلى مرتبة الوثيقة التاريخية المعتمدة لدى فئات عريضة من المسلمين عموماً، والأجيال الناشئة منهم على وجه الخصوص.

• ويظل سؤال التجسيد قائماً :

ونختم هذا الفصل المحوري من هذا الكتاب، بكلمة موجزة حول التخوف الأهم لأعداء فكرة التجسيد، وهو ترسخ صورة غير واقعية، قد تكون مشوهة، لشخصيات هي من أعلام تاريخنا الإسلامي.

لا أخفيكم سراً إن قلت بأني، ومن وجهة نظر شخصية، لا أدري على وجه التحديد إلى أي حد قد يحصل ذلك الترسخ السلبي لصورة الشخصية عند فئات المشاهدين المختلفة.

لكن الأمر المؤكد في الواقع أن ما حدث قد حدث على كل حال، لن يغير أعداء التجسيد فكرتهم، كما لن يغيرها أنصار التجسيد. والمسلسلات قد عُرضت وانتهى الأمر، وشاهدها الناس وانتهى الأمر، فيجب إذاً لنكون واقعيين أن ننطلق من هذه النقطة.

أنصار التجسيد جاؤوا هذا العام ليخاطبوا العالم بمنطق (ألم نقل لكم !؟)، مستندين بذلك على فيلم الرسالة التي حورب في زمانه ثم حصل على التأييد والاحترام بعد سنوات عديدة من عرضه.

والآن مع مسلسل عمر، نسمع أيضاً عبارة (ألم نقل لكم !؟)، وفي وقت مبكر جداً ! ويستشهد قائلو هذه العبارة بأن الأصوات العالية التي دعت لمقاطعة المسلسل قد خفتت بعد البدء في عرضه، وازدادت خفوتاً مع مضي الحلقات، ليقف كثير من الذين حاربوا المسلسل قبل عرضه موقف الاحترام والتقدير له بعد عرضه.

هل سيقف التاريخ شاهداً على انتصار فكرة تجسيد الخلفاء الراشدين كما وقف شاهداً على انتصار فيلم الرسالة ؟
مازال الوقت مبكراً على معرفة ذلك.

وإني، بصراحة، إن أردت الحديث من منطلق شخصي، أقول بأنه لا مانع يمنعني من مشاهدة الدراما التاريخية مهما أثارت من الجدل حول تجسيدها للشخصيات المقدسة، وفي مقابل ذلك، لا أسمح لصورة الممثل المجسد للدور أن تتخذ في نفسي مكاناً بحيث أصدق بسذاجة أنها هي نفسها الصورة الحقيقية للشخصية المجسدة !

المسلسل يظل مسلسلاً، والتمثيل يظل تمثيلاً، وهو يقرب الصورة فقط ولا ينقلها نقلاً، ومن بديهية العقل أن الصورة الحقيقية للشخصية التاريخية هي ليست نفسها صورة الممثل، لكني مع ذلك لا أنكر أن للتجسيد فوائد كثيرة لا تخفى على عاقل، وذلك بشرطه طبعاً، وهو أن يكون تجسيداً متقناً اجتهد فيه لمطابقة المراجع

التاريخية، ولم يتم الإخلال فيه بالسمت الذي يليق بحجم الشخصية المراد تجسيدها. وهذه في نهاية الأمر مسائل تتعلق بالمحاكمة الإخراجية للعمل الدرامي.

وعلى خلاف ذلك، وإن كنت قد تكلمت الآن عن نفسي، وعن من هم مثلي من المتابعين، إلا أن الناس ليسوا جميعاً سواء، وهم يختلفون في نظرهم لموضوع التجسيد ومدى تأثرهم بإيجابياته وسلبياته، اختلافاً موازياً لاختلاف طبائعهم الخاصة وأفكارهم المسبقة وتركيبهم الثقافي والنفسي.

فالمشاهد الساذج قد يصدق أن الممثل هو نفسه الشخصية ! ويحضرني هنا موقف طريف سمعته في كلمة للشيخ عثمان الخميس يدعو فيها لمقاطعة مسلسل عمر، أخبر فيها عن شخص جاءه مستشهداً على جواز حلق اللحية، بمشاهدته لـ (عمرو بن العاص) حليقاً في أحد المسلسلات إلا من شعيرات تملأ ذقنه ! وهذه لعمرى سذاجة لا تضحك إلا بقدر ما تبكي.

أما المشاهد خبيث الطوية، وأعني هنا العلمانيين والليبراليين وأشباههم، فهم لا يرضيهم سوى أن يتم تشويه الشخصية عمداً، وذلك بدعوى إزالة هالة القداسة عنها والتركيز على إنسانيتها، أو بشريتها بتعبير أصح، وتحضري هنا مشاركة قرأتها لأحد الليبراليين في منتدى الشبكة الليبرالية العربية، عبر فيها عن استيائه من مسلسل عمر، واصفاً العلماء الذين أجازوا العمل عليه أمثال القرضاوي والعودة وغيرهما بـ (المثاليين)، في حين دعى للاعتماد على مراجع أخرى لكتابة نص المسلسل، ولكم أن تتخيلوا نوعية المراجع التي دعا إليها أخونا الليبرالي !

خلاصة القول، أن التجسيد يظل قضية فكرية تتشعب حولها الآراء، ولعل الزمن وحده سيكون الحكم العدل الذي سيحسم في أمر هذه القضية. ويبقى التنبيه إلا أن النقاش عن سؤال (هل يجوز تجسيد شخصيات الصحابة أم لا ؟)، كان ساري

المفعول قبل إنتاج المسلسل وعرضه على الشاشة، أما وقد تم الأمر وعُرض المسلسل وشاهده الناس، فإن السؤال الذي ينبغي أن يُطرح الآن هو (كيف جُسّد الصحابة في مسلسل عمر؟).

لم يعد مجدياً الآن أن نتجادل حول مشروعية التجسيد من عدمها، فقد تم التجسيد وانتهى الأمر، وإنما نحتاج الآن إلى نقد ذلك التجسيد ومحاكمته ووضعه في الميزان، وذلك بهدف الموازنة العادلة والمنصفة بين مصالح التجسيد ومفاسده، إيجابياته وسلبياته.

فهل من متصدٍّ لهذه المهمة ممن لهم رأي شرعي معتمد؟!

الفصل الرابع

كيف نقيم مسلسل عمر؟

من البديهيات المقررة عند أي مهتم بنقد عمل فني ما، أن النقد يجب أن يكون مبنياً على اعتبارات كثيرة تتجاوز في معظم الأحيان ظاهر العمل إلى عوامل أخرى أكثر عمقاً وتعقيداً، وذلك ينطبق بشكل جلي على مسلسل عمر، فعندما نريد أن نقرأ المسلسل قراءة نقدية، لا يمكننا بحال من الأحوال أن نكتفي بما عرضه المسلسل فقط من حلقاته الأولى إلى حلقاته الأخيرة، وإلا ستكون القراءة محدودة وقاصرة. ولا يمكن تجاوز ذلك القصور إلا بإدخال مختلف العوامل ذات العلاقة مع المسلسل من قريب ومن بعيد. أي أن ما يجب على الناقد للعمل أن يخترق ما يُقرأ من سطور العمل بالعين المجردة إلى ما وراء سطوره مما يختبئ في ثناياه وطيّاته.

ومن ضمن تلك العوامل، التاريخ الخاص للقائمين على المسلسل، تاريخ المؤلف وأعماله السابقة، تاريخ المخرج وأعماله السابقة، انتماءاتهم الدينية والفكرية والفنية، شركة الإنتاج، قنوات العرض، الظرف التاريخي والسياسي الذي تزامن مع عرض المسلسل، القضايا الفكرية الراهنة التي ينعكس عليها المسلسل بشكل مباشر وغير مباشر...

والحديث عن مسلسل عمر، كما سبق وذكرنا، جاء مقترناً عند كثير من المعارضين له باسم الشركة المنتجة له، والتي لا تحمل سمعة طيبة لدى عموم المسلمين،

وربما نُتهم المسلسل باسم الشركة المنتجة له أكثر من اسم كاتبه ومخرجه، وقد سمعنا من قال : "منذ متى كانت قناة mbc تساهم في نشر الإسلام ؟!!!!".

هذا السؤال وجيه ولا شك في ذلك، ويجب أخذه بعين الاعتبار في مستويات معينة من النقد غالباً ما ستقودنا إلى اتهام النوايا والأهداف، إلا أن ذلك لا يخدم بالضرورة النقد الموضوعي للمسلسل كعمل درامي، بل إن الانطلاق من النقد الموضوعي للعمل الدرامي سيوصلنا، حتماً، إلى الإجابة عن سؤال النوايا والأهداف.

فكيف يمكننا إذاً أن نقيّم مسلسل عمر ؟ وما هي أهم الارتباطات التي يجب الانتباه لها والاهتمام بها طلباً لوضع المسلسل في سياقه المناسب ؟

ولو أردنا طرح السؤال بصيغة أكثر تفصيلاً، فنقول : ما هي أهم المواضيع التي تربطها علاقة مع المسلسل، والتي من خلال دراستها نستطيع الاقتراب أكثر من نقده نقداً موضوعياً يضعنا أمام حقيقته ؟

إن من البديهي أن مسلسل عمر ليس مجرد حلقات تُعرض على الشاشة ناقلة لنا مشاهد مجردة من التاريخ، بل هو أطروحة دينية وفكرية أسست على اختيار مرحلة من مراحل التاريخ لأجل دراستها واستخراج ما فيها من عبر ودروس قابلة للإسقاط على واقعنا الحالي. ومما يبدو للناظر السطحي أن ما عرضه المسلسل من مشاهد مؤثرة تجسد عدالة الإسلام وعظمته وعدل عمر وتواضعه يقطع كل الألسنة التي قد تتجرأ على اتهام المسلسل في نواياه وأهدافه، إلا أن نظرة أكثر تعمقاً في السياق الفكري للمسلسل تقول غير ذلك، أعني أن احتمال سوء القصد في المسلسل وارد وموجود.

وبعبارة صادمة أكثر : أن يكون مسلسل عمر معولاً من معاول الهدم احتمال وارد حتى يثبت العكس !

وبيان ذلك في النقاط التالية التي أذكرها بشكل موجز :

• الجانب العقائدي في مسلسل عمر : بين السنة والشيعة :

وما أقصده بالجانب العقائدي هنا بعيد كل البعد عن التقسيمات العلمية الدقيقة الموغلة في التصنيف، إنما أعني فقط التقسيم العامي الكبير بين المسلمين بصفتهم سنة أو شيعة.

فما هو سائد لدى الجماهير أن هناك طائفتان كبيرتان من المسلمين، السنة والشيعة. للشيعة علاماتهم التي يُعرفون بها وأماكنهم التي يوجدون فيها، ومعظم ما عداهم من العرب والمسلمين في كافة الدول العربية هم محسوبون على (السنة). أي أن كل من لم يكن شيعياً فهو سني.

هذا التقسيم السطحي وإن كان خاطئاً من الناحية العلمية، لكون مجتمعاتنا العربية مليئة بأصحاب الانتماءات الفكرية الذين هم ليسوا شيعة، لكنهم يفضلون أن يلقبوا بأي شيء سوى أن يقال عنهم بأنهم (سنة) ! إلا أنه في باب الموقف من الخلفاء الراشدين يكون ذلك التقسيم السطحي ساري المفعول.

وعليه فإن القائمين على مسلسل عمر هم محسوبون على المعسكر (السني) في مفهومه الشامل المقابل للمعسكر الشيعي، واختبار ذلك منهم تعاملهم مع موضوع المسلسل وما اشتملت عليه أحداثه من مواقف شديدة الحدة تنكسر فيها بشكل قطعي وجهات النظر بين السنة والشيعة، فإما أن يكون موقف المسلسل منها على عقيدة السنة أو على عقيدة الشيعة وما من خيار ثالث.

وهنا يمكننا القول بأن مسلسل عمر، مثّل في هذا الجانب الموقف السني في أكثر أشكاله صراحة وبعداً عن مDAHنة الشيعة وملاطفتهم ومجاملتهم.

ولذلك شواهد كثيرة نسوق منها :

1 - اختيار شخصية عمر بن الخطاب كمحور رئيسي للمسلسل، وتقديمه كأنموذج مثالي متكامل للإنسان والخليفة. ومن المعلوم أن موقف الشيعة من عمر رضي الله عنه موقف كارّة حاقّد معادٍ.

2 - الإقرار بصحة خلافة أبي بكر الصديق وتأكيد المسلسل على جلالة قدر الخلفاء الأربعة، وفي هذا بالإضافة إلى النقطة الأولى موقف صارم اتخذه المسلسل إلى جانب المعتقد السني في عدالة الصحابة والخلفاء الراشدين، مقابل المعتقد الشيعي المكفّر للصحابة والمتعبد لله بسبّهم ولعنهم.

3 - التأكيد على حسن العلاقة بين الإمام علي رضي الله عنه وبين بقية الخلفاء الراشدين، وهو ما تعتمد المسلسل التركيز عليه في غير ما مشهد.

4 - تقرير عقيدة السنة في تصوير المسلسل لحادثة السقيفة يوم ببيع أبو بكر الصديق خليفة للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشهد سقيفة بني ساعدة جاء في المسلسل موافقاً لما ورد في المراجع السنية على خلاف المكتوب في المراجع الشيعية.

5 - التأكيد على الموقف السني من قاتل عمر بن الخطاب أبو لؤلؤة الجوسي عليه لعائن الله، فقد تقرر في المسلسل أن أبا لؤلؤة كان مجوسياً، وسمنا عمر بن الخطاب يقول في الحلقة الأخيرة من المسلسل بعد طعنه : "الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل صحيح الإسلام". وهذا ما يعتقده أهل السنة في أبي لؤلؤة الجوسي

على عكس الشيعة الذين يعتبرونه مسلماً، بل تعدى بهم الأمر إلى أن يترضوا عنه وقيموا على قبره ضريحاً يتبركون به.

هذا طرف من الشواهد التي تدل على التمثيل الواضح والصريح لعقيدة السنة من طرف مسلسل عمر، إلا أنه يظل تمثيلاً لا يخرج به عن إطار العموميات الكبرى، ولو أوغلنا في دقائق الأمور أكثر فسيعترض طريقنا عدد من الأسئلة الشائكة.

• الجانب الفكري في مسلسل عمر : التأويل الحداثي :

استبشر كثير من الناس خيراً بعرض مسلسل عمر، وذلك لما تمثله شخصية الفاروق من مكانة عظيمة في قلوب المسلمين ووجدانهم، ومما عزز اهتمام الجمهور بمسلسل جديد يتناول سيرة الفاروق عرضُه في ظرفية سياسية حرجة، تميزت باندلاع الثورات الشعبية في عدد من البلدان الإسلامية، وما رافق تلك الثورات من أسئلة ونقاشات تم إحيائها من جديد، تمس صميم الموضوع السياسي وما يتعلق به من شؤون الحكم والسلطان.

حاجة الشعوب الإسلامية إلى نموذج مثالي ومتكامل للحاكم العادل، كان من أهم أسباب استبشار كثير منهم بعرض مسلسل هو الأضخم على المستوى العربي، يعالج سيرة ثاني الخلفاء الراشدين وهو من هو في مواقفه وعدله وتواضعه وزهده، وشدته في الحق ولينه من الضعفاء والمساكين، وقوته التي فتح الله بها أمصاراً بعيدة وأسقط بها ممالك ضخمة طالما قامت على الكفر وفساد المعتقد.

فعصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ولا يزال رمزاً للعصر الإسلامي في أكثر صوره إشراقاً وجمالاً، وذلك ما سهّل على صنّاع المسلسل مهمة إلهاب عواطف الناس وتسميرهم أمام الشاشة تأثراً بما يعرضه من صفحات مشرقة من تاريخنا الإسلامي المجيد.

إلا أن إلقاء نظرة على الواقع الفكري في عصرنا الحالي، قد يقودنا إلى أن يكون أول الشك في مقاصد مسلسل عمر هو عنوانه نفسه : (عمر) ! وهو إذا قُرِنَ بأسماء الجهات المنتجة للمسلسل كان أكثر تشكيكاً وأدعى إلى الريبة.

فكيف يكون اسم عمر مدعاة إلى الشك في نوايا وأهداف القائمين على المسلسل ؟ وهو من هو في عقيدتنا وتاريخنا وهويتنا الإسلامية ؟!

إن الجواب عن هذا السؤال يكمن في واقع الجدل الفكري القائم في بلدان المسلمين، السنية منها على وجه الخصوص، فإن مسلسل عمر إن كان قد نأى بنفسه عن أية شبهة شيعية، فإن من اللازم على المتتبع الذكي أن يستوعب الفرق بين تقريرات المسلسل العقائدية وبين توجهاته الفكرية.

فنحن إذا سلّمنا بأن عموم الناس ينقسمون إلى سنة وشيعة، واستثنينا الشيعة من نقاشنا، فهل كل الناس إذاً سنة ؟ وهل نعتبر القائمين على المسلسل من أهل السنة ؟ وهل هم يعتبرون أنفسهم كذلك ؟ وهل مسلسل عمر يقدّم لنا نفسه بصفته مسلسلاً سنياً ؟

إن إلقاء نظرة على واقع النخب الفكرية والفنية في عالمنا العربي، ليقودنا إلى الاعتقاد بأن تلك النخب تتبنى تيارات فكرية هي في جوهرها مناهضة لعقيدة السنة ومحاربة لها، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار التعاريف العلمية لمذهب أهل السنة

والجماعة، والقائم على تعظيم الشريعة وعلوم الحديث النبوي الشريف ولزوم اتباع السلف الصالح باعتبارهم أقدر الناس على فهم النصوص التشريعية الثابتة في القرآن والسنة.

إننا نتحدث هنا عن (التأويل الحداثي) للتاريخ الإسلامي، أو ما يمكن أن أسميه بـ (التهافت العلماني) الهادف إلى تأويل التاريخ الإسلامي تأويلاً يتوافق مع الطرح العلماني والليبرالي في المواضيع السياسية والتشريعية والفكرية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

ولعل مما لا يخفى على المثقف المسلم أن شخصية عمر بن الخطاب بالذات، كانت من أكثر الشخصيات الإسلامية تعرضاً لمثل هذه التأويلات الفاسدة التي تلقفت منها بعض المواقف والأقوال التي يثبت بعضها تاريخياً وبعضها الآخر تُكلم فيه، ثم قامت بليّ أعناقها والانتقاء منها وتعميمها ثم إسقاطها على واقعنا المعاصر إسقاطاً يعزز وجهة النظر العلمانية المحاربة للفكر الإسلامي الأصيل الذي ينادي بلزوم اتباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

إن الرأي العلماني أو الليبرالي كثيراً ما يستشهد بعمر، وأقوال عمر، وأفعال عمر، حتى يخيّل إلى الواحد منا أن العلماني هو من أكثر الناس غيرة على الدين واتباعاً لهدي الصحابة والسلف الصالح ! ثم إذا سمعت منه استشهاداته بعمر يقع في نفسك أن لسان حاله يؤكد بأن عمر رضي الله عنه كان (علمانياً) يفصل الدين عن الدولة، وكان (عقلانياً) لا يتورع عن الضرب بحديث رسول الله عرض الحائط إذا ما تبدت له في ذلك مصلحة من مصالح الأمة، وكان (ليبرالياً) ينادي بمدينة المجتمع وتحرير المرأة !

وليس في ما أقوله أي تجنُّ أو افتراء، فقد صُرح به نصاً من طرف بعض العلمانيين، وحاشاه رضي الله عنه أن يكون كما قالوا.

يأتي العلماني بحادثة إمساك عمر عن قطع يد السارق في عام الرمادة، فيستشهد بها على ضرورة تعطيل الحدود الشرعية وفصل الدين عن السياسة.

ويأتي العلماني بمواقف مشرقة لعمر مع غير المسلمين من النصارى وأهل الذمة، فيستشهد بذلك على مؤاخاتهم ومحبتهم وتجميع ما بيننا وبينهم من أحكام الولاء والبراء.

ثم يأتي العلماني بأخذ عمر نظام الدواوين والبريد من الفرس، فيستشهد بذلك على ضرورة اتباع الغرب والأخذ منه دون تمييز مبني على أحكام الإسلام ومقاصده.

ثم يأتي العلماني بمقولة عمر يوم توليه الخلافة "إذا رأيتم في أعوجاجاً فقوّموني"، أو "فقوّموه بالسيف"، فيستشهد بها على جواز إحداث الفتنة والخروج على الحاكم المسلم طلباً للحرية والديمقراطية.

ثم يأتي العلماني بمقولة عمر الشهيرة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"، فيستشهد بها على الدعوة إلى الحرية المطلقة في صيغتها الليبرالية المتفلّته.

ثم يأتي العلماني بحادثة منع عمر لأبي هريرة رضي الله عنه أن يكتب الحديث بعد أن بلغه إكثاره منه لئلا يختلط بالقرآن، فيستشهد بها على نبذ الحديث وتهميشه وعدم الأخذ به كمصدرٍ ثانٍ من مصادر التشريع.

ثم يأتي العلماني بما رُوي عن تولية عمر بن الخطاب للشفاء بنت عبد الله على الحسبة وبعض أمر السوق، فيستشهد بها على خروج المرأة وعملها واختلاطها بالرجال كما يدعو إلى ذلك الليبراليون ومن نحى نحوهم من أعداء الدين.

والأمثلة كثيرة، لكن زبدة الموضوع أن العلماني عندما يستشهد بمواقف الفاروق رضي الله عنه فهو لا يريد بذلك وجه الله، ولا يقصد غيراً على الدين ودعوة لإقرار حاكميته على الدول والمجتمع، وإنما يريد ببعض تلك المواقف دعوة إلى (العلمانية)، وبيعها الآخر دعوة إلى (الإنسانية)، وبيعها الآخر دعوة إلى (الديمقراطية)، وبيعها الآخر دعوة إلى (تحرير المرأة).

وكل هذه الدعوات إنما هي من الأزيال الفكرية التي يتغنى بها أعداؤنا بعد أن ألبسوها عناوين براقة وأسماء ملونة، ثم جاء من بني جلدتنا من حملوا لواءها وبذلوا الجهود وأسألوا المداد ورفعوا الأصوات في الدعوة إلى اعتناقها وتبنيها وتطبيقها في مجتمعاتنا المسلمة.

ثم كانت تأويلاتهم الفاسدة هذه لبعض مواقف عمر مطايا غرروا بها بالسذج من الناس الذين يسرعون إلى تصديق كل دعوة ألبست لبوساً إسلامياً أو إنسانياً. إلا أن التدقيق في تلك التأويلات من وجهة نظر علمية ودينية وتاريخية سيقودنا حتماً إلى إسقاطها والحكم بتهافتها وسفاهتها.

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان رغم أنوفهم وقافاً عند كتاب الله، وهذا مما لُقّب به، وما يُنسب إليه مما صحّ من تلك المواقف، هو لا يخرج بحال من الأحوال عن الاتباع الدقيق للنصوص الشرعية التي لها مجالات تطبيقها مما قد حدده علماء الإسلام قديماً وحديثاً، وآخر من يحق له الاستشهاد بمواقف سلفنا الصالح هم هؤلاء العلمانيون الذين لم يعد خبث مقاصدهم خافياً على عاقل.

إنني هنا لا أدين مسلسل عمر، ولا أقول بأن المسلسل يدخل ضمن إطار هذه الدعوة العلمانية التي تطلق لحيثها أحياناً إذا اقتضى الموقف، وإنما أشير إلى شيء

يجب أن يشار إليه، وهو أن هذا الاحتمال وارد ضمن الاحتمالات الواردة، وأن الناقد الفكري لمسلسل عمر يجب أن يضع هذا الواقع نصب عينيه وألا يتجاهله.

وليس فيما أقول نوع من التجني أو اتهام النوايا أو إساءة الظن، بل هو ضرب من التخوف البريء الذي له ما يدعمه من الشواهد العقلية التي يؤكد بها الواقع.

فالمسلسل يحمل اسم (عمر)، وهو من إخراج حاتم علي، وإنتاج قناة mbc وتلفزيون قطر.

فما الذي نعرفه عن قناة mbc وتوجهاتها الفاسدة وسمعتها السيئة لدى كل المسلمين؟ وما الذي نعرفه عن المخرج حاتم علي؟ وهو الذي أخرج كثيراً من المسلسلات العصرية التي فيها ما فيها مما نعلم وتعلمون، بل وهو الذي لم ينفك يحشو مسلسلاته التاريخية السابقة بمشاهد العري والرقص الفاضح بشكل يخرج عنها الصفة الإسلامية مطلقاً.

ثم، وإذا، ما الذي يجعل هؤلاء فجأة يطلقون لحاهم؟! ويتحدثون عن عمر، وعدل عمر، وزهد عمر، ومواقف عمر، وضرورة أن تكتب تاريخنا بأنفسنا قبل أن يكتبه لنا غيرنا، وأن نعز بتاريخنا وتراثنا وعُمُرنا؟

إن أقل ما يمكن أن نقوله عن اقتزان عنوان المسلسل مع الأسماء المشرفة عليه بأنه (مثير للريبة)، ولو أساء بهم الظن أحد لما استحق لوماً حتى يثبت العكس.

• الجانب النقدي ، مسلسل عمر في قفص

اللائحة :

تختلف توجهات الناقدين لمسلسل عمر باختلاف مشاربهم وانتماءاتهم وتخصصاتهم ووجهات نظرهم بين العقيدة والتاريخ والفكر والفن، إلا أن القاسم المشترك بين كل هؤلاء رغبتهم في الكشف عن القيمة الحقيقية للمسلسل وهل هو مستحق لأن يكلل بوصف النجاح أم أن هنالك تحفظات معينة على هذه النقطة أو تلك.

ولأن الموضوع الذي يعالجه مسلسل عمر هو موضوع إسلامي خالص، فإن الاعتبار الإسلامي يجب أن يكون حاضراً ولا بد في كافة الاعتبارات النقدية سالفه الذكر، وهذا ما قد وضع مسلسل عمر سلفاً في قفص الاتهام، عقائدياً بسبب الحساسية الشيعية، وفكرياً بسبب ما ذكرناه في الفقرة السابقة، وتاريخياً بسبب السمعة السيئة لبقية المسلسلات التاريخية فيما يخص أمانة النقل التاريخي، وفنياً بسبب مسألة تجسيد الشخصيات المقدسة وهي سابقة لم تُعرف من قبل في عالم الدراما.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن النقد لا يمكن أن يكون حيادياً في حال من الأحوال، سوى في جانب واحد هو جانب النقل التاريخي التي يتضمن استعراض النصوص حرفياً كما وردت في المراجع، أما فيما يتعلق ببقية الجوانب فإن الحيادية فيها أمر متعذر، لكون الناقد هو ولا بد منتهم لتوجه معين يؤثر بشكل أو بآخر على تذوقه ورؤيته للعمل ومن ثم على قراءته النقدية له.

فعلى المستوى العقائدي، يستحيل أن يتفق المسلم والكافر، السني والشيوعي، على قراءة نقدية واحدة لمسلسل عمر، لأن كل واحد منهم سيكتب منطلقاً من انتمائه وما يفرضه عليه من زوايا رؤية محددة.

وعلى المستوى الفكري لا بد أن تطفو على السطح الانتماءات الفكرية للناقد ووجهات نظره للصواب والخطأ والحق والباطل.

وحتى على المستوى الفني، فإن الثقافة الفنية للناقد ومدى العمق في قدرته على التدقيق للخصائص الفنية للعمل، هي أمور من شأنها أن تؤثر على انطباعاته النفسية عنه وبالتالي على قراءته النقدية له.

إلا أنه، وكما سبق وذكرنا، يظل الاعتبار الإسلامي في المسلسل هو المبتدأ والمنتهى، وهو المنطلق المشترك بين كل من اعترم على أن يشارك الساحة الثقافية في عالمنا العربي قراءته النقدية لهذا المسلسل المثير للاهتمام.

فهل يُحكم على مسلسل عمر بالبراءة ؟ أم أن ما اتُّهم به ثابت في حقه ؟

هل كان المسلسل أميناً في كتابته للتاريخ ؟ أم أنه حرّف وانتقى ودلّس ؟

هل كان المسلسل على قدر المسؤولية في تجسيده لشخصيات الصحابة ؟ أم أنه قام بتشويه صورهم أمام الناس ؟

هل حافظ المسلسل على طرح فكري نظيف من الشبهات ؟ أم أنه كان وراء الأكمة ما وراءها ؟

إن الإجابة المفصلة عن هذه الأسئلة تتطلب مباحث معمقة، ربما يضيق بذكرها المقام هنا، إضافة إلى أن النقد العلمي والتاريخي للمسلسل هو ليس مما تطرق

له هذا الكتاب، إلا أنني أحببت مشاركتكم، ببعض الرؤى الانطباعية والفنية التي كوّنْتُها عن المسلسل إثر متابعتي له، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام :

- السيناريو والنص الدرامي.

- الإخراج الفني للصورة.

- الأداء التمثيلي.

الفصل الخامس

قراءات انطباعية في مسلسل عمر

تمتع مسلسل عمر قبل عرضه بعوامل دعائية كثيرة إلى جانب الحملة الإعلامية الموسعة التي روجت له، ومن تلك العوامل عنوانه (عمر)، واسم كاتبه (وليد سيف)، واسم مخرجه (حاتم علي).

إن من له اطلاع على واقع الدراما التاريخية في السنوات الأخيرة يعرف دون شك القيمة الفنية التي يشكلها امتزاج الثنائي وليد سيف وحاتم علي، بل إن كثيراً من المتابعين قد فقدوا آمالهم من كل ما يعرض من مسلسلات تاريخية عدا ما يقدمه هذا الثنائي المتميز.

وإنني كلما نظرت في ما قدمه الثنائي من أعمال سابقة أتعبت بقية الكتاب والمخرجين، بل لعلها أعجزتهم، أجد أن ماهية الإبداع فيها تتجاوز ناتج الامتزاج بين كاتب متميز ومخرج متميز، إلى ناتج آخر بين امتزاج أكثر عمقاً، هو ذلك الامتزاج بين منتهى الأصالة ومنتهى الحداثة.

إن من تابع المسلسلات التاريخية السابقة التي قدمها الثنائي وليد وحاتم، سيجد أن الكفاءة العالية التي أظهرها تمثل في الامتزاج بين أصالة النص وحداثة

الصورة، وذلك ما منحها القوة الكافية لكي تفرض نفسها وتتغلب بالضربة القاضية على كل ما سبق وعُرض من مسلسلات تاريخية قديماً وحديثاً.

فإن الأجواء التي يدخل فيها المشاهد لمسلسلات وليد حاتم، تجعله يعيش تلك الأجواء التاريخية والأحداث التي وقعت منذ قرون بعيدة، وكأنه جزء منها، أو كأنه يشهدها على الحقيقة وليس مجرد تمثيل فني، ومردُّ ذلك إلى أصالة النص التاريخي الذي يكتبه الدكتور وليد سيف، والمتميز بلغته العربية الفصيحة، والعتيقة أيضاً في نفس الوقت، ففصاحة اللغة وحدها لا تكفي لنقل الأجواء الحقيقية للأحداث التاريخية، بل على الحوارات أن تكون مكتوبة بلغة قديمة ومصطلحات عربية أصيلة تتناسب مع الفترة الزمنية التي تجري فيها الأحداث، وهذا ما تتميز به الكتابات الدرامية للدكتور وليد سيف، فإنها تدخل بالمشاهد في روضة أدبية غناء تزدان بالعبارات البلاغية والدروس المؤثرة والمصطلحات الأصيلة، وكل ذلك في أجواء تتحرك فيها الشخصيات وتدور فيها الحوارات بتلقائية طبيعية بعيداً عن الأداء الخطابي والمتكلف، وبعيداً عن الأساليب الحديثة والتعبيرات المحدثّة التي تنتشر في الكتب والمجلات والمقالات الصحفية الجديدة.

وإلى جانب الأصالة الأدبية لنصوص الدكتور وليد سيف نجد أن المخرج حاتم علي يلجأ دوماً إلى أحدث التقنيات المعاصرة في إخراج مسلسلاته التاريخية، والتي عندما تضاف إلى العبقرية الإخراجية لحاتم فإن النتيجة تكون إبهاراً بصرياً عالي المستوى، سواء فيما يتعلق بالخلفيات والديكور أو الملابس وأشكال الشخصيات، وأيضاً الحلول البصرية الذكية التي تتم صناعتها بواسطة أسلوب استخدام الكاميرا أو بتقنيات الجرافيكس المتطورة.

وبذلك استطاعت المسلسلات التاريخية التي قدمها وليد سيف وحاتم علي أن تحلق بالمشاهد في أجواء تاريخية في منتهى الأصالة، تم تصويرها وإخراجها بأسلوب هو في قمة التطور والحداثة، وهنالك تكمن قوتها.

والآن ونحن أمام مسلسل عمر، أحدث إنتاج درامي عربي قدمه الثنائي المتميز، فهل ظل مسلسل عمر محافظاً على مكتسبات التفوق التي تميز بها الثنائي، على مستوى النص والصورة معاً؟

• في السيناريو والنص الدرامي :

وأنا أكتب عنوان هذه الفقرة، عادت بي الذاكرة إلى العام الماضي، عندما عُرض مسلسل (الحسن والحسين)، وأثار بتجسيده لسبطي رسول الله جدلاً كبيراً كان بوسعه أن يشير فضولي لمتابعة العمل كاملاً، وقد أثير فضولي فعلاً في تلك الأيام، وكنت قررت مشاهدة المسلسل عبر الانترنت بعد انتهاء رمضان، لكني لم أفعل.

وحتى عندما حدث وشاهدت لقطات متفرقة من المسلسل، لم يحصل لي ذلك الفضول الشديد لمتابعته وإكماله، لما لاحظته من هشاشة واضحة في النص الحواري واللغة المستخدمة، ثم لم ألبث أن علمت بأن السبب الحقيقي وراء عدم تحمسي لمشاهدة العمل هو أنه (ليس من كتابة الدكتور وليد سيف).

ليس صعباً على من تابع الأعمال التاريخية السابقة التي ألفها الدكتور وليد، أن يدرك بأن من ارتفع بذائقته إلى مستوى تلك الأعمال لن يجد في الأعمال الأخرى ما يرضيه. وبهذا، كان من أهم أسباب اهتمامي بمتابعة مسلسل عمر، أكثر من مسألة تجسيده لشخصية الفاروق، كونه من تأليف الدكتور وليد سيف، ولو أن كاتباً آخر

كتب مسلسل عمر فرما لم أكن سأتابعه، كما لو أن مسلسل (الحسن والحسين) كان من تأليف وليد سيف فإني حتماً كنت سأكون له أول المتابعين.

وعلى هذا، فإن اسم مؤلف المسلسل يجب أن يدخل ضمن الاعتبارات النقدية التي لا يمكن تجاهلها، والحق أن نصاً كنص مسلسل عمر لو أنه كان من تأليف كاتب آخر فإنه سيكون إنجازاً، لكن ولأنه من تأليف الدكتور وليد سيف، فعلياً هنا أن نطرح السؤال التالي :

هل كان نص مسلسل عمر على مستوى الأعمال السابقة للدكتور وليد ؟

أجد نفسي هنا مضطراً، في أسف، إلى القول بأن نص الدكتور وليد هذه المرة يقبل الانتقاد بشدة، مع تفوقه المعتاد في عنصر اللغة والفصاحة والبلاغة، إلا أن على المسلسل ككل ملاحظات وانتقادات لا يمكن تجاهلها، أعرضها لكم على النحو التالي :

* انحسار المساحات الحرة للتأليف بسبب الضبط التاريخي :

لقد خضع النص الدرامي لمسلسل عمر لتدقيق اللجنة الشرعية التي أجازت المسلسل، وبما أن المسلسل يعالج مرحلة البعثة النبوية إضافة إلى عصرين راشدين، فإن جزءاً كبيراً من الحوارات كان ينبغي أن يكون مضبوطاً ومطابقاً لما ورد في المراجع التاريخية، بعيداً عن التأليف واختراع الحوارات والنصوص ومحاولات الغوص والتعمق في الشخصيات.

ولذلك يلاحظ أن حوارات المسلسل هي في مجملها معروفة ومكررة ومحفوظة لدى المشاهد الذي ما أكثر ما قرأها في الكتب وسمعها في المحاضرات وشاهدها في الأعمال التاريخية السابقة التي تناولت نفس الفترة.

بل إننا نلاحظ أن المسلسل لم يكثر من الخوض في الجوانب الشخصية لعمر بن الخطاب، وذلك بسبب ندرة المراجع التي تتناول تلك الجوانب كما جاء في تصريح الدكتور وليد سيف نفسه، مما وقف حاجزاً بينه وبين أن يؤلف حوارات ومواقف من عند نفسه مبنية فقط على ما نعرفه حول شخصية عمر أو على ظنون وتكهنات وافتراسات.

ورغم ذلك، كان لنص وليد سيف نصيب كبير من محاولة الغوص في أعماق بعض الشخصيات وإنطاقها بحوارات وأقوال مفترضة لا ثبوت لها في التاريخ، ونخص بالذكر هنا شخصية وحشي بن حرب، وبلال بن رباح، الأمر الذي جعل من السهل على المتابع العادي أن يميز بين الأحداث والحوارات الثابتة فعلاً في كتب التاريخ وبين ما قام الدكتور وليد سيف بتأليفه من عند نفسه وبأسلوبه الخاص ضمن إطار ما يسمى بالحبكة الدرامية والتعمق في الشخصيات.

وعلى كل حال، لا نستطيع أن نلوم الدكتور وليد سيف على التزامه بالنصوص التاريخية، بل هو مما يُشكر عليه فيما ثبت التزامه بها حقاً، ولو أنه لم يلتزم بها لاستحق انتقاداً شديداً، إلا أن النصوص الحوارية هي ليست المكوّن الوحيد للنص الدرامي، بل إن النص الدرامي يتكون من عوامل أخرى تقع ضمن نطاق مسؤولية المؤلف، ونذكر منها حبكة السيناريو، وترتيب الأحداث، وحجم الأحداث، أي ما تم التركيز عليه وما تم اختصاره، وأيضاً طبيعة الانتقاء التاريخي والحواري وما ينطوي عليه من دلالات.

كل هذه أمور كانت ضمن ملاحظاتي التي احتفظت بها لتكوين انطباع عام عن المسلسل، فكانت النتيجة أن انكسر رأيي في المسلسل بين ما هو جزئي وما هو كلي. وبيان ذلك فيما يلي :

* التقييم الكلي والتقييم الجزئي :

ما أعنيه بالتقييم الكلي، تقييمي للمسلسل في مجمله وعمومه، أما التقييم الجزئي فأعني به تقييم تفاصيل المسلسل من لقطات ومشاهد مجردة عن سياقها في عموم المسلسل.

يشمل التقييم الكلي للمسلسل عنصر الترابط بين مراحل وأحداثه بدءاً من بدايته وحتى نهايته، لذلك فالحديث عن كليات المسلسل يعني حديثنا عن أهم ما قام بعرضه من أحداث على طول حلقاته وكيف قام بالربط بينها والانتقال من مرحلة إلى أخرى، وهل نجح في ربط المتابع بحبكتته وجعله يتفاعل مع سير الأحداث بسلاسة ودون انكسارات مزعجة.

أما التقييم الجزئي فهو لا يعنى بحبكة المسلسل وقوة الترابط بين الأحداث والمراحل، بل يعنى فقط بتقييم كل مشهد على حدة بعد أن يُفصل عن سياقه في المسلسل، بحيث يُعامل معه كمشهد مستقل مجرد.

يمكنني القول بأن ملاحظاتي حول هذا الصدد جعلت رأيي في المسلسل ينكسر انكساراً حاداً بين تقييمه الكلي وتقييمه الجزئي.

ولذلك أعتقد، على المستوى الكلي، بأن سيناريو المسلسل لم يُحبك حبكاً بالغ الجودة، بل إن فيه من الثغرات الشيء الكثير مما لم يعجب فئات عريضة من الجماهير والنقاد، وسبب ذلك سوء تركيز المسلسل على شخصيته الرئيسية، ثم سوء تركيزه حتى على السيرة النبوية وفجر الإسلام، وأيضاً سوء تركيزه على الشخصيات بشكل عام. ثم إطالته في حوارات ومشاهد لم تكن تحتاج كل تلك الإطالة، واختصاره لمشاهد كان عليها أن تحظى بالمزيد من الاهتمام.

أما على المستوى الجزئي، فمما لا شك فيه أن معظم مشاهد المسلسل قد تم تصويرها وتمثيلها بشكل جميل ومقبول، بل إن بعض المشاهد فيه هي بالغة الروعة والتأثير، لا سيما ما عالج منها بعض المواقف العظيمة للفاروق عمر رضي الله عنه. الأمر الذي سيجعني أستمع باختيار لقطات معينة لمشاهدتها والاستفادة منها، دون أن أكون مهتماً بوضع نفسي في سياقها داخل حبكة المسلسل.

وجدير بالذكر أن الدكتور وليد سيف هو من أقدر الناس على الحبك الدرامي المحترف، وتشهد له بذلك أعماله السابقة، إلا أن لما حدث في مسلسل عمر أسباب تتعلق باختيار المسلسل أن يركز على سيرة الإسلام، الأمر الذي اضطره لمعالجة عدد كبير من الشخصيات التي لا يربطها رابط قوي مع عمر بقدر ما هي مرتبطة بأيام الإسلام الأولى، الأمر الذي كان سبباً لتعرض زمن المسلسل لضغط كبير أثر على حركته الدرامية بشكل واضح.

* غياب عمر كشخصية محورية في العمل :

كثيراً ما كنت أندمج في مشاهدة حلقة من حلقات المسلسل، لأتفاجأ باسم (عمر) يظهر مبتدئاً شارة النهاية ومعلنناً انتهاء الحلقة، وأجد نفسي ساعتها متسائلاً : أين عمر ؟!

رغم أن المسلسل يحمل اسم عمر، ويعدُّ المشاهد بأنه سيقدم له سيرة ثاني الخلفاء الراشدين، إلا أن شخصية عمر لم تظهر كعنصر محوري في المسلسل إلا في حلقات لاحقة، وتحديدًا بعد توليه الخلافة، وهي مرحلة لم تتجاوز الثمان حلقات.

كان ملاحظاً بشدة غياب شخصية عمر كعنصر مؤثر في الأحداث السابقة التي تناولت جوانب من السيرة النبوية وفجر الإسلام، لدرجة جعلتني أطرح السؤال التالي :

هل كان على المسلسل أن يحمل اسم (عمر) ؟!

من المؤسف قول ذلك ولكن، لا أستطيع إخفاء شعوري بأن مجرد حمل المسلسل اسم (عمر) كان تكلفاً خاطئاً، ومحاولة لفرض شخصية أمير المؤمنين كما يراها المسلسل على وعي المشاهد، رغم قلة المراجع التاريخية التي تغوص في الجوانب الشخصية لأمر المؤمنين، مما أنشأ فرقاً ملموساً بين عنوان المسلسل ومضمونه، وهذه نقطة سيتم التحدث عنها بتفصيل أكثر في فقرة لاحقة.

* التغييب المتعمد لبعض الشخصيات المهمة :

وأبرز تلك الشخصيات معاوية بن أبي سفيان، فهو لم يظهر على الإطلاق في أي حلقة من حلقات المسلسل، ولا تم ذكره أو الحديث عنه في أي مشهد من المشاهد ! رغم أنه أسلم قبل أبيه، وكانت له مواقف في معركة اليرموك كما أنه قد شهد حيناً، إلا أنه بدا واضحاً ذلك التغييب المتعمد والمقصود له في المسلسل، وهو تغييب لا نقبله رغم كل التبريرات التي يستطيع الملاحظ أن يخمن بعضها، فمعروف أن معاوية بن أبي سفيان كان ولا يزال محل جدل قوي وعنيف بين بعض الطوائف الإسلامية، بل حتى بين بعض من ينتسبون إلى المذهب السني، الأمر الذي في اعتقادي جعل المسلسل يختار تغييبه نهائياً تجنباً لأية تناحرات فكرية لا تخدم أهداف المسلسل.

وهذه الحجة بطبيعة الحال إن صحت فهي مردودة على أصحابها، لأن المراجع السننية التي أخذ منها المسلسل نصوصه وأحداثه، هي نفسها تتحدث عن معاوية وتذكره بما صح عنه من أحوال وأخبار وأقوال، وكان أولى بالمسلسل أن يظهر لنا معاوية بالقدر المناسب، وبالطريقة المناسبة التي توافق المراجع التاريخية نفسها التي اعتمدها المسلسل، أما تغييبه الواضح والمتعمد بهذا الشكل فقد ثغر ثغرة في المسلسل من شأنها أن تفتح أبواب من التأويل والاتهام وسوء الظن.

بالإضافة إلى معاوية، ثمة عدد من الشخصيات ذات الارتباط القوي بأحداث المسلسل لم يكن لها أي ظهور يُذكر، وقد ذكر منها أحد الكتاب لم أقف على اسمه، في مقاله القيم المسمى (من تولى كبر مسلسل عمر ؟)، والمنشور في موقع رابطة أدباء الشام : حفصة بنت عمر، أبو محجن الثقفي، عمرو بن معد الزيدي، وآخرون كان لهم ظهور إلا أنه كعدمه إذ لم يضيفوا شيئاً يذكر للمسلسل رغم أنه كانت لهم مواقف تستحق أن تُعرض كما يليق بأهميتها.

* تغييب أحداث ومواقف مهمة وثابتة عن عمر :

اعتذر طاقم المسلسل لنفسه، عن تركيزه على موضوع سيرة الإسلام وعدم التطرق لشخصية عمر بتفصيل كافٍ، بندرة المراجع المتحدثة عن عمر، إلا أن إلقاء نظرة على ما انتقاه المسلسل من سيرة عمر وما غيَّبه منها، سيضعنا أمام حقيقة مؤسفة، وهي أن هناك مما ثبت عن عمر عدد كبير من المواقف ذات الأهمية الكبيرة في تاريخ الإسلام، تم تغييبها تماماً ولم يتم التطرق إليها، في الوقت الذي ضاع فيه زمن الحلقات الأولى في حوارات دار الندوة بين كفار قريش وحوارات وحشي وبلال.

وأسوق لكم بعض تلك المواقف مقتبسة من نفس المقال سالف الذكر (من تولى كبر مسلسل عمر ؟)، وهو مقال مفيد وإن كنت لا أتفق مع كاتبه في بعض انتقاداته، وفي نتيجة تحليله للمسلسل :

1 - زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفصة بنت عمر، وهو حدث مهم كان يجدر بالمسلسل إظهاره لكونه من الأحداث الرابطة بين سيرة عمر وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2 - نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأييد عمر في عدد من المواقف، منها موقفه تجاه أسرى بدر، وسؤاله في حجة الوداع عن اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وآية الحجاب، ومعاتبته لأمهات المؤمنين بمن فيهن ابنته حفصة عند مطالبتهن بالنفقة، ونزول آية الاستئذان، وغير ذلك من المواقف التي نزل فيها الوحي مؤيداً لرأي عمر بن الخطاب.

3 - الاستنباط الموفق لعمر بن الخطاب لأحكام القرآن الكريم، والتي كان من نتائجها إنشاء سجلات للمواليد وصادرات الدولة ووارداتها، وإحداث نظام الوقف، وهيئة لمراقبة الكسب غير المشروع، وإصدار الأمر للرجال ألا يغيبوا عن زوجاتهم أكثر من أربعة أشهر، ويذكر أن المسلسل قد ساق فعلاً بعض ما ذكرت كإنشاء السجلات وتحديد المدة القصوى لغياب الرجل عن زوجته، إلا أنه لم يربطها باستنباطه رضي الله عنه لها من الآيات القرآنية، وهذا أمر لا أفهم سبب تغييبه ولو تم تضمينه في حلقات المسلسل لما أخذ من زمنها شيئاً، ولأضاف لها قوة وجمالاً وكان أثبت في التاريخ وأقدر على الإقناع.

كل هذه، وغيرها، أمور أثبتتها مراجعنا التاريخية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أن المسلسل أغفلها تماماً دون سبب واضح، في الوقت الذي يتحجج فيه بندرة المراجع، والتي انتقى منها من سيرة عمر ما يخدم أهدافه الفكرية والفنية فقط.

* مؤاخذات حول معالجة المسلسل للسيرة النبوية :

يصرّح المسلسل، بأن تركيزه على السيرة النبوية وفجر الإسلام كان مقصوداً، وذلك لأن اجتزاء سيرة عمر بن الخطاب عن قصة الإسلام أمر غير ممكن، فالمسلسل قد هدف إلى تقديم سيرة الفاروق من خلال سيرة الإسلام نفسه، فهل نجح المسلسل في تحقيق هذه المعادلة ؟

مرة أخرى، الجواب مع الأسف هو لا.

فمن يتابع المسلسل سيلاحظ أن تركيزه على سيرة عمر بن الخطاب كان مهتماً للغاية، وسيلاحظ أيضاً أن تركيزه حتى على السيرة النبوية وفجر الإسلام لا يخلو من مؤاخذات كثيرة يجب أن تُعرض للمناقشة.

فالمسلسل لم يسيء التركيز على سيرة عمر بن الخطاب إلا بقدر ما أساء التركيز على السيرة النبوية نفسها، فلا هو قدم السيرة بشكل مُرضٍ ولا هو تعمق في تقديم سيرة الفاروق بشكل يقدم جديداً للمشاهد.

ويمكننا تلخيص هذه المؤاخذات في ما يلي :

1 - لم يفصّل المسلسل في موضوع البعثة بما يكفي، بل اكتفى بمشهد واحد فقط في نهاية الحلقة الأولى ظهر فيه ورقة بن نوفل، ثم لم يلبث أن انتقل في الحلقة الثانية إلى السنة الثالثة للبعثة متجاوزاً حادثة الإسراء والمعراج ومتجاوزاً ذكر أوائل من أسلموا من الصحابة، وفي هذا إسقاط لأحداث مهمة رافقت الأيام الأولى للبعثة

النبوية والدعوة الإسلامية. فالمسلسل لم يركز في تناوله لقصة الإسلام على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى العقائد والأحكام التي جاء بها الإسلام، وعلى أوائل من أسلموا وكيف أسلموا، وعلى بدء الدعوة الإسلامية سرية في بداياتها في دار الأرقم بن أبي الأرقم، إلى غير ذلك من التفاصيل والأحداث المهمة التي أسقطها المسلسل تماماً.

والحق أنني عذرت المسلسل في حلقاته الأولى، ظناً مني أن إسرعه في عرض مرحلة السيرة النبوية وفجر الإسلام كان بسبب رغبته في الإسراع إلى المراحل التي تعالج سيرة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن تتابع الحلقات جعلني أكتشف أن المسلسل قد تعمد التمطيط والتطويل والتركيز على شخصيات وأحداث معينة، في حين أسقط واختصر شخصيات ومراحل أخرى بشكل لا يمكن أبداً أن يكون مبرراً ومقبولاً، مع الأسف الشديد.

2 - نلاحظ أن المسلسل في بداياته قد ركز، وبشدة، على شخصيات كفار قريش، وتعمق فيهم، وغاص في نفسياتهم وصفاتهم، وعالج بإسهاب موضوع تفاخرهم بالأنساب، وعرض طرفاً من عاداتهم ومواقفهم التي تنم على طريقتهم في التفكير والتعامل مع الأمور والقضايا، لكن كل هذا كان على حساب شخصيات الصحابة الذين سبقوا إلى الإسلام.

فالمتابع للمسلسل يلاحظ أن كفار قريش قد استحوذوا على معظم زمن الحلقات، في حين لم تكن شخصيات الصحابة سوى شخصيات ثانوية هزيلة لم تظهر سوى بشكل عرضي، وفي مشاهد قليلة جداً، بشكل يجعل كفار قريش شخصيات محورية تدور حولها الأحداث، فعندما نتابع الحلقات الأولى من المسلسل نلاحظ أن معظم زمنها يمضي في حوارات مطولة بين أبي جهل، وأمّية بن خلف،

وعتبة بن ربيعة، ووحشي بن حرب، والوليد بن المغيرة، وشخصيات أخرى من كفار قريش، بشكل طغى تماماً حتى على حضور عمر بن الخطاب نفسه، أما المسلمون السابقون كأبي بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهم، فهم لا يظهرون إلا لمأماً، وفي مشاهد ذات زمن قصير جداً، ولا تحتوي من الحوارات ما يروي الظماً ويشفي الغليل.

3 - ويضاف إلى هذا أيضاً، سوء التركيز على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرغم أنه رسول الله الذي جاء بالإسلام من عند رب السماوات، وهو بالضرورة الشخصية الأهم في تلك المرحلة من التاريخ، إلا أنه لم يظهر سوى في مشاهد قليلة جداً، ومقتضبة جداً، بشكل جعله شخصية يُتحدث عنها أكثر مما تتحدث هي عن نفسها.

كل هذه الملاحظات سألقة الذكر، تجعلني أؤكد على أن مسلسل عمر لم يعالج حتى موضوع السيرة النبوية معالجة شافية، بل كل ما عاجله هو جوانب معينة فقط من تلك المرحلة، ومن وجهة نظر كفار قريش وليس من وجهة نظر الإسلام !

* التركيز على قصص جانبية لا علاقة لها بمضمون المسلسل :

وهذه من الملاحظات التي سُجلت بكثرة عن المسلسل، وتكاد تتكرر في كل مقال يُكتب عنه، فالمسلسل الذي يفترض أنه يحكي سيرة (عمر)، كثيراً ما يتعد ويغوص في معالجة قصص جانبية لا علاقة لها من قريب ولا من بعيد بقصة عمر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا ضير أن يتعمق المسلسل التاريخي، بحدود، في قصص جانبية شرط أن تكون ذات علاقة بمضمونه الرئيسي، لكن ما حدث في مسلسل عمر غير ذلك، إذ نلاحظ إغراقاً منه في معالجة موضوع العبودية والحرية، عبر

قصة وحشي بن حرب وعلاقته مع محبوبته ربحانة، وعلاقته المختلقة أيضاً مع بلال بن رباح والتي لا ندري هل لها أصل في كتب التاريخ أم لا.

كما أنفق المسلسل كثيراً من وقته في معالجة قصة أسر سهيل بن عمرو لولديه. وهذه وإن كانت قضايا ذات أهمية، والحق أن المسلسل أجاد في معالجتها نصاً وإخراجاً، إلا أن طغيانها على غيرها من القضايا الأهم والأولى في تلك المرحلة، وعلى موضوع المسلسل الرئيسي الذي هو عمر بن الخطاب، هو أمر لا يمكن أن نقبله من باب عدم قبولنا لتقديم المهم على الأهم.

* الظهور المهتز لبعض الشخصيات :

إضافة إلى ما سبق ذكره من إعطاء الأهمية لكفار قريش في بداية المسلسل أكثر من الصحابة والسابقين من المسلمين، فإننا نسجل أيضاً بعض الضعف في توزيع الشخصيات عموماً على مساحات العرض.

فالشخصيات كثيرة، لكنها غير موزعة بشكل جيد، مما تسبب ببعض التشتت في عرضها فكان أن ضاع المشاهد بينها، وربما نسي بعضها، ووجد صعوبة في ربط الأحداث فيما بينها. فقد كان ملاحظاً أن شخصيات معينة تظهر، ويسلط الضوء عليها، ثم تختفي فجأة، وتغيب لأكثر من حلقة، ثم تظهر مجدداً بطريقة لا تخدم السياق إلا قليلاً.

وكمثال لتلك الشخصيات عمار بن ياسر، وأبوه وأمه، وعثمان بن عفان، والوليد بن المغيرة، وحمزة بن عبد المطلب، بل وأقول، معظم المسلمين الذين كان على المسلسل أن يسلط ضوءه عليهم منذ البداية، ويعرض لنا مشاهد لدخولهم في الإسلام، وبعض مواقفهم، ومشاهد من نزول الوحي أيضاً لمناسبات تخص بعضهم،

إلا أن فجر الإسلام قد راح معظمه في المسلسل مع مشاهد لدار الندوة وأبي جهل وأمية بن خلف ووحشي بن حرب، حتى إذا جاءت الغزوات في حلقات لاحقة، وقُتل صناديد الكفر في قريش، وجد المشاهد نفسه أمام صحابة يظهرهم فجأة، لم يتحدث المسلسل عن تاريخهم، متى أسلموا، ولا كيف أسلموا، وهذا ولا شك من نقاط ضعف النص الذي أنفق حلقات كثيرة من عمر المسلسل في قصة الإسلام دون أن يكون له من التركيز والتوازن ما يكفي لوضع المشاهد أمام صورة واضحة تأخذ فيها الشخصيات والأحداث أحجاماً تتناسب مع أهميتها في المرحلة.

* عاتكة زوجة عمر ، جدل مجاني !

كان من أكثر النقاط في المسلسل إثارة للجدل، تجسيده لشخصية عاتكة بن زيد زوجة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والتي أدت دورها الممثلة المصرية ألفت عمر.

ولم ترتفع الأصوات الراضية للمسلسل، المنادية بضراوة إلى مقاطعته، إلا وتجسيده لعاتكة زوجة عمر رضي الله عنهما من أهم أسباب الرفض ودعوة المقاطعة، ولقد ركز الدعاة على هذا الموضوع تحديداً، مستحضرين غيرة الفاروق رضي الله عنه، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكر هو نفسه غيرة عمر فأعرض عن بعض ما أعده الله له في الجنة.

ويسأل دعاة المقاطعة بحرقه ربما مُزجت بالدموع : هل استأذنتم عمر في تجسيد زوجته ؟ وهل يرضى أحد هؤلاء القائمين على المسلسل أن تجسّد زوجته في مسلسل تلفزيوني ممثلة فاسقة متبرجة ؟ وهل لو بُعث عمر بن الخطاب في عصرنا هذا، هل كان سيرضى أن يشاهد زوجته ممثلة في مسلسل تلفزيوني ؟

أتمنى أن أسمع إجابةً عن هذه الأسئلة من طرف القائمين عن المسلسل، لأننا لا نستطيع سماعها من عمر نفسه وقد لحق إلى جوار ربه منذ مئات السنين ! لكنني ترقبت طوال حلقات طويلة ظهور عاتكة بن زيد، إلى أن ظهرت أخيراً. لكن الذي فاجأني بعد انتهاء المسلسل، هو أن ظهور عاتكة كان في مشاهد قليلة جداً، وسطحية جداً، ولا تأثير لها على أحداث المسلسل لا من قريب ولا من بعيد، وكان بالإمكان فعلاً الاستغناء عنها وإغفال ظهورها تماماً كما تم إغفال شخصيات أخرى أكثر أهمية منها !

فلماذا تظهر عاتكة في المسلسل ؟ وما الذي أضافته لحبكته الدرامية ؟

أما كان الأجدد بالقائمين على المسلسل أن يستمروا على ما ذهبوا إليه في إغفال الجوانب الشخصية من عمر، والتي يقولون بأن المراجع التاريخية فقيرة منها ؟
ألم يكن أفضل أن يتجنبوا هذا التشنيع عليهم، وهذا الجدل المجاني الذي بُني على تجسيدهم لعاتكة، عبر إغفال ظهورها كما تم إغفال غيرها ؟

ظهور عاتكة في المسلسل لم يضيف شيئاً لحبكته الدرامية، سوى ما كان من إثارة جدل مجاني لا طائل وراءه، ولم يخدم المسلسل ولا متابعيه بشيء على الإطلاق.

ختاماً نقول ونؤكد، بأننا لا نحدد الجهود الكبيرة التي بذلها الدكتور وليد سيف في إعداد المسلسل الذي له دون شك نقاط قوته أيضاً، وهي جهود وصفها الدكتور وليد بأنها كانت أشبه بجهود رجل يعمل على إعداد رسالة دكتوراه، إلا أنه وبناءً على النجاح المطرد للتحف الفنية والأدبية السابقة لنفس المؤلف، نقول بأنه كان في الإمكان أفضل مما كان، ونتمنى أن تكون هناك في الأعوام القادمة مزيد من أعمال

الدراما التاريخية للشئائي الذهبي (وليد سيف) و (حاتم علي)، فهما دون منازع أسياد هذا المجال منذ صلاح الدين.

• في الإخراج الفني للصورة :

الحديث عن الإخراج الفني لمسلسل عمر، يقودنا للحديث عن عملية (الإنتاج) وما كان لها من التميز والتفرد ما جعل المسلسل يصنف الآن كـ (أضخم إنتاج درامي عربي)، وهذا التصنيف جاء بناءً على الأرقام المتعلقة بالإنتاج كالميزانيات المرصودة والجهود المبذولة في بناء مدينة مكة وغيرها وصناعة كل صغيرة وكبيرة تخص المسلسل صناعة يدوية.

لكن هل يكفي ذلك للحكم على المسلسل بالنجاح ؟ هل المعايير المادية للإنتاج تكفي للحكم عليه بأنه أضخم إنتاج عربي ؟

هل يولي المشاهد العربي البسيط كثير اهتمام بالتفاصيل الإنتاجية لعمل تاريخي ما كي يستحسنه وينال على إعجابه ؟

إذا كان مسلسل عمر، مادياً وإنتاجياً، هو أضخم إنتاج درامي عربي، فهل يعني ذلك بالضرورة أنه (أفضل مسلسل تاريخي عربي) ؟

هل تمكن مخرج المسلسل حاتم علي من أن يكون عند حسن ظن المتابعين، وهل تفوق في مسلسل عمر على أعماله السابقة كلها ؟

طبعاً ليست هنالك إجابات قاطعة على هذه الأسئلة، فإن الآراء قد تباينت حول المسلسل، بعضها ينظر إليه على أنه فعلاً أفضل مسلسل تاريخي حتى الآن، وبعضها الآخر يصف المسلسل بالركاكة والفشل، إلا أن التقييم الإخراجي لمسلسل

عمر، لا يجب أن يكون منفصلاً عن الأعمال التاريخية السابقة لمخرج العمل حاتم علي، وذلك لكون فعل المقارنة جزءاً لا يتجزأ من موضوعية النقد.

من المعلوم لدى الجميع أن آخر دراما تاريخية أخرجها حاتم علي هي (ملوك الطوائف)، سنة 2005، وهي الجزء الثالث من سلسلة مسلسلات تحكي تاريخ الأندلس، كان يفترض أن تكون رابعة لولا أن مسلسل (سقوط غرناطة) لم ير النور حتى الآن، وبذلك يكون مسلسل (ملوك الطوائف) آخر ما تم إخراجها من طرف حاتم قبل مسلسل عمر.

والحق أنني عند مشاهداتي الأولى لمسلسل عمر، كانت صورة (ملوك الطوائف) حاضرة في ذهني، وكنت أتوقع أن أشاهد في مسلسل عمر من الإبحار البصري ما يتفوق على رائعة الدراما التاريخية (ملوك الطوائف)، إلا أنه يؤسفني القول بأن مسلسل عمر لم يرق، على الإطلاق، لمستوى الإبحار البصري المتعود عليه من حاتم علي عموماً، وفي مسلسل (ملوك الطوائف) خصوصاً، وهو مسلسل اعتبره طفرة إخراجية ربما لن تتكرر.

مسلسل عمر جاء مختلفاً عن الأعمال السابقة لحاتم علي، وأول الاختلاف غياب بعض أهم الوجوه التي سجلت حضورها المتميز في أدوار البطولة في تلك الأعمال، وأهمها جمال سليمان، تيم حسن، حسن عويتي، سلاف فواخرجي وغيرهم الكثير من الوجوه التي اختفت تماماً في مسلسل عمر، مع تسجيل حضور ثانوي للفنان حسن عويتي في مشهد واحد فقط في الحلقة السادسة والعشرين.

إذاً، في مسلسل عمر كنا على موعد مع وجوه جديدة كثيرة حلت محل الوجوه القديمة التي تعودنا عليها في أعمال حاتم علي، وسيكون لنا حديث مفصل بإذن الله حول أداء أهم الممثلين لأدوار المسلسل.

لكن قبل ذلك، يجدر بنا الحديث عن أهم عناصر التقييم الإخراجي للدراما التاريخية، والتي بناء عليها سنحاول تسجيل بعض الملاحظات التي تخص المسلسل :

* الأجواء العامة لسير الأحداث :

وتشمل تفاصيل الأماكن الخارجية والداخلية، وكذلك الطابع اللوني العام الذي يصنع الأجواء، وهو خلاصة تقنيات التصوير والجغرافيكس المستخدمة مضافةً إليها أشكال الملابس وألوانها.

وقد حرص حاتم علي على إضفاء ما يلزم من طابع صحراوي جاف على أجواء العمل، وهو إن كان قد تعرض لانتقادات حول الهيئة المعمارية لمدينة مكة، واختلافها عما كان ينبغي أن تكون عليه منازلها ومبانيها في ذلك الوقت، إلا أن أجواء المسلسل بشكل عام كانت جيدة ومناسبة لتلك الفترة من التاريخ.

ويستطيع المتابع أن يميز ذلك الاختلاف بين أجواء مسلسل عمر وبين أجواء مسلسل ملوك الطوائف مثلاً، وهي أجواء كانت تنضح بمظاهر النعومة والترف متجلية في أشكال المباني والألوان الزاهية المزركشة للفُرُش والستائر وملابس الشخصيات.

* خطاب الكاميرا :

ذكر أنه قد استُخدم لتصوير مسلسل عمر أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا المعاصرة من كاميرات وتقنيات تصوير، وتحديدًا كاميرات (الريد)، وكاميرات طائرة محمولة على مروحيات مخصصة للتصوير الفوقي، وأيضاً كاميرات متناهية الصغر توضع على الرماح أو السيوف أو رؤوس الخيل.

كما قد صُور المسلسل بطريقة تجعله قابلاً للعرض السينمائي أيضاً إلى جانب العرض التلفزيوني، وذلك بناء على مشروع تحويله إلى فيلم سينمائي على غرار فيلم الرسالة.

إلا أنه، ومع ذلك، كان مما خيَّب أمني في التفوق الإخراجي للمسلسل خلوه من الإبداع والابتكار في مجال حركة الكاميرا وزوايا التصوير، فمعظم المشاهد – باستثناء المعارك – مصورة بطريقة عادية تعرض الحوارات بين الشخصيات بشكل رتيب، ودون أن يكون للكاميرا خطابها الخاص والمتميز مع المتفرج.

وهذا مع الأسف خلاف ما كان في مسلسل (ملوك الطوائف)، حيث كان ملحوظاً ذلك الاستخدام المبدع والمبتكر والذكي جداً للكاميرا، سواء عبر اختيار زوايا التصوير أو عبر التركيز على تصوير بعض التفاصيل الدقيقة بواسطة الاقتراب منها وإبرازها، أو عبر أسلوب تحريكها في مساحة المشهد، وبناءً على هذا أجد نفسي معتقداً بأن مسلسل عمر مع تفوقه إخراجياً على بقية المسلسلات التاريخية، إلا أنه لم يتفوق على مسلسل ملوك الطوائف في هذا الجانب.

* تصوير المعارك :

كان ملحوظاً، ذلك الاهتمام الكبير لحاتم علي بجانب المعارك في مسلسل عمر، وهو جانب بُذلت فيه جهود كبيرة وأيام طويلة، ورُصدت له ميزانيات ضخمة وتقنيات حديثة في التصوير والمونتاج، وليس بوسع منصفٍ أن ينكر بأن مشاهد المعارك في مسلسل عمر هي آية في البراعة والإتقان والإمتاع، وقد وُظفت لها رؤية فنية تختلف تلك التي وُظفت في معارك مسلسل ملوك الطوائف.

فبالقاء نظرة على مشاهد من معارك هذا الأخير، نلاحظ أن نمطاً إخراجياً معيناً قد غلب عليها، يتضمن التلاعب السريع بمسافة المشاهد، عبر تقاطيع سريعة تقترب فيها الصورة فجأة ثم تبتعد فجأة، ثم تقترب فجأة، مما يسبب نوعاً من الفوضى المتعمدة لدى المشاهد الذي تتسارع أمام عينيه الصور المتكسرة، المقتربة المبتعدة.

أما في مسلسل عمر، فقد اعتمدت رؤية فنية أخرى للمعارك تختلف عن سابقتها، تتمثل في تعدد زوايا التصوير، والتركيز على التصوير العلوي، وأيضاً اهتزاز الصورة اهتزازاً خفيفاً سريعاً.

كما قد التُجئ إلى إبراز تقنيات حديثة في الكومبارس وُظفت لها مجموعة من المجازفين والمقاتلين الأشداء، مما جعل بعض المشاهد تبدو وكأنها جزء من مباريات المصارعة الحديثة.

وأيضاً، قد تميزت معظم معارك مسلسل عمر بحركة إخراجية تتضمن إبطاء الصورة في مقطع معين، غالباً يكون المقطع الذي يسبق الهجوم مباشرة، وذلك لشدة انتباه المشاهد وحبس أنفاسه لبضع ثوان، ثم ينطلق المشهد من جديد عائداً إلى سرعته الطبيعية.

يُسجل أيضاً، ذلك الاستخدام الذكي والمبدع والرائع للمؤثرات الصوتية الصناعية، المرافقة لمعظم أحداث المعركة من ضرب وتلويح وإسقاط، وأيضاً صليل السيوف واصطدامها ببعضها البعض، وإخراجها من أعمادها وإعادةها إليها، وكذا الطعن والإصابة بالرمح وإخراج السلاح من الجسد المطعون، كل هذه التفاصيل استُخدمت لها مكتبة أصوات متميزة عالية الدقة وشديدة التأثير، كان لها أعظم الدور في جعل معارك مسلسل عمر غاية في الإبداع والاحترافية.

يبقى أن نقول، بأنه مهما بلغت انتقاداتنا لمسلسل عمر على مستوى النص أو الإخراج أو التمثيل، إلا أن ما لا يسع أحداً إنكاره أن المسلسل قدم لمكتبة الدراما العربية مجموعة بديعة من المعارك التي ستضمن بإذن الله لأجيال من المتابعين قدراً موفوراً من الفائدة والمتعة.

* حضور المرأة :

كالعادة، وهذا توجه معتاد عليه في المسلسلات التاريخية عموماً، بما فيها أعمال الثنائي وليد وحاتم، كان للمرأة حضور مهم، قد تُعَمِّد جعله مهماً بشكل واضح عبر إبراز مجموعة من الشخصيات النسائية، بأسلوب يجعلها ذات حضور وتأثير ورأي، نذكر منها هند بنت عتبة، وريحانة محبوبة وحشي، والكاهنة سجاح، والشفاء بنت عبد الله، وأيضاً عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب، وإن لم يكن لهذه الأخيرة دور له من الحجم ما يكفي لمكانتها في موضوع المسلسل.

وجدير بالذكر أن تعامل حاتم علي مع العنصر النسائي في مسلسله لم يسلمه من الانتقادات اللاذعة، رغم سياسة الحذر الشديد التي انتهجها في هذا الصدد.

فقد سمعنا انتقادات حول مَشاهد يظهر فيها الرجال مختلطين مع النساء في بعض التجمعات المتحلقة حول الخطب وغيرها، وكذلك حول ظهور زوجة عمر، وغيرها من نساء المسلمين سافرات في المسلسل، أي كاشفات لوجوههن، كما قد انتُقد إدراج شخصية الشفاء بنت عبد الله كمسؤولة عن الاحتساب بأمر من عمر بن الخطاب، الأمر الذي بحسب البعض لم يثبت تاريخياً، وهو بحسب البعض الآخر ثابت وموجود.

يهمنا أن نخص بالإشارة في هذا السياق، أن موضوع المرأة بشكل عام، كان ولا يزال من أكثر المواضيع التي يثير تناولها جدلاً حاداً بين الإسلاميين وغيرهم، وحتى بين بعض الإسلاميين أنفسهم فيما بينهم، ونتحدث هنا على وجه الخصوص عن حجابها، وعن عملها خارج البيت جنباً إلى جنب مع الرجل، وعن توليها لبعض المسؤوليات العامة، وعن قضية الاختلاط بشكل عام.

ولم تتوقف الدراما التاريخية منذ وجودها عن التركيز على المرأة بهدف إعلاء شأنها واستعادة مكانتها وإنصافها من الظلم الذي يرون أن التاريخ أوقعه عليها، بلسان بعض المتشددين وأياديهم. إلا أن من الملحوظ بشكل واضح، مع الأسف، أن حضور المرأة في الدراما التاريخية غالباً، أو دائماً ما يتعرض للمبالغة والتشويه والافتراء، وذلك خدمةً للطرح الإيديولوجي المتحرر الذي تتبناه الجهات الصانعة لتلك الأعمال.

فإذا كان التدليس التاريخي وتحريف الأحداث في بعض المسلسلات أمراً من شأنه أن يمر بهدوء دون أن يُنتبه له، فإن أسلوب تلك المسلسلات في تناول قضية المرأة عبر تناولها للشخصيات النسائية في التاريخ هو أمر يحتاج لمراجعة علمية صارمة، فليس مقبولاً أن تُقدم صورة مشوهة لأوضاع النساء الاجتماعية والدينية والأخلاقية بشكل يخالف ما أثبتته التاريخ، وإلا كان ذلك من التدليس المذموم والغش للمُشاهد، كأن تظهر مشاهد اختلاط بين الرجال والنساء في سياق تاريخي ثبت فيه أن الاختلاط أمر لم يكن يحدث، أو كأن تظهر نساء المسلمين متبرجات خارج بيوتهن في سياق تاريخي ثبت فيه أن الحجاب كان أمراً بدهياً لا يُناقش.

ولسنا هنا معنيين بالدرجة الأولى بالصواب والخطأ، أو بالطرح الإيديولوجي للجهة المنتجة للمسلسل التاريخي، بل نقول فقط، بأننا نريد للمسلسل التاريخي أن

يعرض لنا التاريخ بشكله الحقيقي كما كان فعلاً، وليس كما يوافق أفكار المخرج ومواقفه ومعتقداته.

وإذا كان بعض المخرجين، وأبرزهم حاتم علي نفسه، لا يتورع عن إظهار مشاهد رقص فاضحة، ونساء بملابس تكشف أكثر مما تستر من أجسادهن، في مسلسلات تاريخية تعالج حقبة زمنية شهدت الانحطاط الأخلاقي للمسلمين، كمسلسل ملوك الطوائف مثلاً وغيره، ودعواه في ذلك الأمانة التاريخية، وعرض التاريخ كما هو دون غش أو تلميع، فمن باب أولى إذاً التزام نفس الأمانة التاريخية في الجهة المقابلة أيضاً، وإظهار النقاب في الوقت الذي كان فيه النساء منقبات فعلاً، والحجاب بشكله التاريخي المناسب في الوقت الذي كان فيه النساء محجبات، وهكذا.

وعند الحديث عن مسلسل عمر، وهو موضوعنا الآن، يمكننا أن نلاحظ بوضوح أن تعامل حاتم علي مع المرأة في مسلسله جاء جزءاً من سياسته الحذرة التي تهدف لعدم ترك المجال لتصادمات عنيفة مع الإسلاميين على المستوى الأخلاقي، فالمسلسل قد خلا بشكل نهائي من المشاهد المخلة أخلاقياً، ولم يتضمن شيئاً من مشاهد الرقص والعري حتى في عرضه لبعض مجالس الفساد لدى عرب الجاهلية والفرس أيضاً، كما قام حاتم علي بتحجيب كل النساء المسلمات في المسلسل، واللواتي ظهرن بأثواب فضفاضة ساترة لا تكشف سوى الوجه والكفين، أما غير المسلمات فلم يظهرن محجبات، لكن لبساهن كان ساتراً لا يثير الانتباه ولا الجدل.

ويستثنى من ذلك، بحسب علمي، ظهور ريحانة محبوبة وحشي غير محجبة رغم اعتناقها للإسلام، في المشهد الذي صدّت فيه وحشي عن التقدم لخطبتها، ولا أذكر ما إذا كان لها ظهور بعد ذلك المشهد، وكيف كان.

خلاصة القول أن انتقاد سياسة حاتم علي في التعامل مع المرأة في مسلسله، يجب أن يكون مبنياً على الحقائق التاريخية المجردة وليس على الآراء الشرعية ومبدأ الصواب والخطأ، فالكلمة هنا إذاً لمراجع التاريخ الموثوقة فقط، بعيداً عن التوجهات الفكرية والانتماءات الإيديولوجية، فإذا ثبت لنا أن الصورة التي قدمها حاتم علي لأوضاع النساء في مسلسل عمر، هي صورة حقيقية ثابتة في كتب التاريخ، وأن النساء كن فعلاً محجبات بذلك الشكل ويجتمعن مع الرجال في المجالس بتلك الهيئة التي ظهرن عليها في المسلسل، فليس علينا إذاً أن ننتقده أو أن نتهمه، حتى لو كنا مقتنعين بأن الصواب في ميزان الشرع هو غير ذلك.

وفي المقابل، لو أثبتت لنا مراجع التاريخ أن النساء في تلك المرحلة لم يكن يخرجن إلا منقبات يغطين وجوههن، وأن اجتماعهن مع الرجال في المجالس والخطب لم يكن على النحو الذي ظهر في المسلسل، فإن علينا إذاً أن ننتقد المخرج وأن نسائل أمانته، وذلك بغض النظر عن مواقفه الخاصة واختياراته الفكرية المتعلقة بهذه القضية الشرعية.

وهذا دون شك مما ينبغي تطبيقه على كافة جوانب المعالجة الدرامية للأحداث التاريخية وليس ما يتعلق بالمرأة فقط، فليس هناك خيانة أعظم من التصرف في الحقائق التاريخية من أجل خدمة الأفكار والمذاهب والإيديولوجيات، سواء أكانت حقاً أم باطلاً، صواباً أم خطأ.

* انتقادات متفرقة من هنا وهناك :

بشكل عام، ودون الخوض في كثير من التفاصيل، يمكن للمتابع البسيط أن يلاحظ بسهولة، وهذا ما كُتب بالفعل في غير قليل من المقالات، بأن مسلسل عمر اكتفى بالتصوير العادي للمشاهد الدرامية بعيداً عن الحيل البصرية والصوتية الذكية

التي وُجدت في مسلسل ملوك الطوائف، وبرأيي أن التراجع عن مكتسبات إخراجية مهمة هو انتقال سلبي من (المميز) إلى (العادي)، وقد كنا نحن المتابعين بذلك كمن أخذ فضة من صائع الذهب.

بقيت قبل ختام هذه الفقرة بعض الملاحظات المتفرقة التي قمت بتسجيلها حول المسلسل، والتي أضعها بين أيديكم على النحو التالي :

1 - من الحلول البصرية الذكية التي تميز بها مسلسل ملوك الطوائف، تخليده لبعض مشاهده المؤثرة وأقواله البليغة، عبر تخصيصها بدرجة لونية مختلفة ومتميزة ذات طابع بني عتيق، ممزوجة بمؤثر صوتي خاص، وهي حركة مبدعة من شأنها أن تشد الانتباه للمشاهد ولأهميته. وإني إن كنت لا أدعو لتكرار حركة استُخدمت سابقاً في مسلسل آخر جديد، إلا أنه لا أقل من ابتكار بهارات بصرية جديدة كان على حاتم علي أن يزيّن مسلسل عمر بها، عوضاً عن الرجوع به إلى أسلوب العرض التقليدي القديم الحالي تقريباً من أية حركات لافتة ومبتكرة.

2 - وأيضاً من الأمور التي عاد بها حاتم علي في مسلسل عمر من (المميز) إلى (العادي)، شارة النهاية، فبالعودة لمسلسل ملوك الطوائف، نلاحظ أن النغمة الأولى من موسيقى شارة النهاية تقتحم قليلاً المشهد الأخير من المسلسل، بحيث تبدأ الموسيقى لثانية أو ثانيتين قبل انقطاع الصورة والحركة، وهذه في الواقع حركة جميلة كان لها طابع مميز للغاية، تمنيت لو أن مسلسل عمر احتفظ بها أيضاً، لولا أنه عاد مع الأسف إلى العرض التقليدي الذي لا يختلف ولا يتميز بشيء عن بقية المسلسلات الأخرى.

3 - اختار حاتم علي عرض نشيدٍ مكتمل العزف ل (طلع البدر علينا) لحظة دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المهاجرين إلى المدينة المنورة، وفي اعتقادي

أن ذلك أثر سلباً على واقعية المشهد رغم جماليته الفائقة، فلو أنه أظهر أهل المدينة ينشدون ذلك النشيد بأنفسهم في استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أفضل بكثير.

4 - ملاحظة أخرى، وهي للأمانة ليست لي بل قرأتها في أحد المقالات، تتمثل في ظهور جمهرة من المسلمين في الحلقة الثانية من المسلسل، تصلي في مكان مبتعد بعض الشيء، فقدم إليها أبو سفيان مع عدد من كفار قريش ونشب شجار بين الجمهرتين. الخطأ كان في إظهار المسلمين يصلون تجاه الكعبة، ومعلوم أن الكعبة المشرفة لم تصر قبلة لصلاة المسلمين سوى بعد ثلاثة عشر عاماً من البعثة النبوية، حيث كانوا قبل ذلك يتوجهون في صلاتهم تجاه بيت المقدس. خطأ إخراجي كهذا وإن كان لا ينقص كثيراً من قدر المسلسل، إلا أنه كان من الأفضل ألا يكون، وحبذا لو كان قد انتبه له قبل أن يتم إعداد الحلقات للعرض النهائي.

5 - تعرّض مشهد إسلام عمر في الحلقة السابعة لانتقادات كثيرة، لكونه كان دون المستوى المتوقع لمشهد في مثل مكانته وأهميته للمسلسل، إلا أن انتقادي حول هذا المشهد لا يتعلق بجانبه الفني، بل بجانبه التاريخي. فمن المعلوم لدى كافة المسلمين أن عمر بن الخطاب لما ضرب أخته حتى أدمها، وأمرها بأن تسلمه الرقعة المتضمنة لآيات من سورة طه، فإنها قد رفضت تسليمها له لكونه كافراً نجساً لا يحق له لمس الصحيفة المتضمنة لآيات القرآن، وأبت عليه ذلك إلا بعد أن يغتسل، وذلك ما كان، فقد اغتسل عمر أولاً ثم بعد اغتساله ناولته أخته الصحيفة فكان ما كان من إسلامه.

لم يعرض مسلسل عمر مسألة رفض أخته تسليمه الرقعة إلا بعد أن يغتسل، بل قد سلمتها له مباشرة بعد أن طلبها منه، وهذا خطأ تاريخي وشرعي لا يشفع له

عذر الاختصار من وجهين : الأول أن ما اختصره المسلسل هو حكم شرعي من أحكام الإسلام، وإسقاط المسلسل له إسقاط لذلك الحكم وهذا لا يليق ولا ينبغي، أما الثاني فلكون المسلسل يتناول أصلاً سيرة عمر، وبناءً على ذلك فإن أحق المشاهد بالتفصيل والتطويل والإسهاب هي المشاهد المحورية المتعلقة ببطل المسلسل وشخصيته الرئيسية عمر بن الخطاب، وعليه فإن ذلك المشهد بالذات، مشهد إسلام عمر، لم يكن يحتمل أي نوع من الاختصار بل على العكس من ذلك، كان يستحق معالجة درامية متميزة تسهب في عرض أدق تفاصيله المروية في المراجع.

6 - اختار حاتم علي أن يعرض أحداث المسلسل بصيغة الفلاش باك، بحيث بدأت الحلقة الأولى بمشهد يقع تقريباً في آخر الأحداث، وهو حج عمر رضي الله عنه، ثم ظهر عمر وهو يتذكر باكياً أيام صباه وشبابه، ليعود المسلسل سنوات إلى الوراء بحيث تبدأ قصته الفعلية التي استمرت طيلة حلقات المسلسل، إلى أن يعود بنا المخرج إلى مشهد الحج مجدداً في الحلقة الأخيرة.

ما تجدر ملاحظته أن صورةً لعمر وهو يتأمل موطن صباه ظلت تتكرر أحياناً، لبضع مرات في كل حلقة على طول المسلسل ! وهذه حركة لا أعتقد أنه بالإمكان أن نتفق مع حاتم علي في عرضها، لكونها لا تخدم المسلسل بشيء من جهة، ولكون مدلولها خاطئاً من جهة أخرى، فهي توحي للمشاهد بأن عمر في موقفه ذاك كان يتذكر ماضيه وأيامه القديمة، ويلزم من ذلك أن عمر في وقفته تلك وتأمله لقريته قد تذكر كل أحداث المسلسل من حلقة الأولى إلى حلقة الأخيرة، وهذا متعذر. ومن جهة أخرى فإن ما كان ينظر إليه عمر هو مكان، ارتبط في ذاكرته بأيام شبابه الأولى حين كان يحطب لخالاته ويشدد عليه والده، في حين أن أحداث المسلسل قد وقعت في أزمنة وأمكنة متباعدة، مما يجعل ظهور عمر بين الفينة والأخرى وكأنه ينظر متذكراً

لماضيهِ، والذي هو أحداث المسلسل، اجتهداً إخراجياً خاطئاً لم يخدم المسلسل بشيء إلا بقدر ما شوش على بعض المتابعين الذين فاتتهم الحلقة الأولى.

7 - مشهد دخول عمر للقدس، كان من أكبر خطايا المسلسل إن لم يكن أكبرها على الإطلاق، وسبب ذلك من جهة أنه لم يأخذ حقه الذي يستحق من زمن الظهور، بحيث لم يستحوذ المشهد سوى على دقائق قليلة من نهاية الحلقة الثامنة والعشرين وبداية الحلقة التاسعة والعشرين، ومن جهة أخرى اختلافه الشديد والجذري عن الحدث كما تُصوره مراجع التاريخ، وهذا مما لا يمكن تبريره من طرف الكاتب أو المخرج إطلاقاً، ولا يمكن قبوله من طرف المتابعين بحال من الأحوال.

فمشهد دخول عمر بن الخطاب للقدس هو مشهد تاريخي له مكانة عظيمة في قلوب المسلمين، وهم يعرفون تفاصيله جيداً كما اطلعوا عليها في المراجع التاريخية التي نقلت إلينا تفاصيل الحدث، ولأن مسلسل عمر يقدم للناس وللتاريخ وثائق تاريخية ستشاهدها الأجيال الحالية والقادمة، فكان أولى به أن يحرص كل الحرص على الالتزام الحرفي الكامل بأمثال هذه المشاهد المفصلية الخالدة، على اعتبار أن أدنى تغيير فيها أو تحريف لوقائعها ومجرياتها يعتبر تزويراً وغشاً يدل على انعدام أمانة النقل والطرح، ولا يُقبل أبداً من مسلسل عمر أو غيره أن يقدم وثيقة مشوهة ومحرفة لمشهد من أهم مشاهد التاريخ.

وإني أتساءل في حيرة، ماذا كان على طاقم المسلسل لو أنه التزم حرفياً بالمرجع التاريخي الذي أرّخ للحدث ؟ وما كان عليه لو أظهر عمر لحظة حضوره لبيت المقدس ماشياً وغلامه راكب، وقد كانا يتناوبان على بعير طيلة الطريق ؟ وما كان عليه لو أظهر عمر بثوبه المرقع الذي طلب البطريرك أن يعد رقعه فوجد عددها مطابقاً لما ورد في كتابهم المقدس حول صفات فاتح القدس ؟

إلا أن المسلسل مع الأسف الشديد قد حرّف معظم مجريات الحدث، وحذف منها تفاصيل كثيرة، بل إن أهم ما حرفه فيها حذفه للعبارة العمرية الشهيرة "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله". وبدلاً منها عُرضت حوارات مفتعلة كان الغرض منها أدلة الموقف وتمييعه في محاولة واضحة لمحاولة النصارى واسترضائهم، وترسيخ مبدأ (التسامح بين الأديان).

سيقول قائل بأن مسلسل عمر كان محققاً في ما فعل، لا سيما وأنه سيوجه مدبلجاً ومترجماً إلى غير المسلمين، ولذلك يجب أن يخاطبهم المسلسل بلغة تحببهم في الدين الإسلامي، وهذا حق لا جدال فيه، لكن ليس على حساب ثوابتنا العقائدية والدينية من جهة، وليس بأسلوب الانتقاء والتحريف والحذف من جهة أخرى.

حتى أنه قد سيق في المشهد حديث ذكره عمر على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو "من آذى ذمياً فقد آذاني"، وقد حكم المحققون على هذا الحديث بالوضع، وهو بذلك مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما الذي يجعل المسلسل يستبدل عبارة " نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله " وهي صحيحة يثبتها التاريخ، بعبارة "من آذى ذمياً فقد آذاني" وهي مكذوبة على رسول الله ؟!

هل نختار نصاً مكذوباً لنخدم به فكرة معينة، على حساب نص صحيح عظيم المعنى، قد ثبت أن عمر قد قاله يوم فتحه لبيت المقدس ؟!

8 - قام المسلسل بإظهار شخصية أبي هريرة رضي الله عنه في مشهد واحد في الحلقة التاسعة والعشرين، وبدا واضحاً أن ذلك المشهد أراد أن يقدم رسالة معينة مستغلاً حدثاً تاريخياً ثابتاً، وهو نهي عمر بن الخطاب لأبي هريرة عن كتابة الحديث

لأسباب معينة ولظرفيات خاصة، إلا أن الملاحظ بوضوح أن المسلسل تعتمد الإساءة لشخصية أبي هريرة رضي الله عنه عبر إظهاره بمظهر هزلي يدعو إلى السخرية.

فمن الناحية الشكلية، فقد جعل لأبي هريرة شارب ضخمة يغطي كلتا شفتيه ! وهذا متعذر في حق أبي هريرة بالذات حتى وإن لم تصلنا أوصافه الجسدية، لسبب بسيط وهو أنه كان من رواة حديث اللحية الأمر بجزّ الشوارب وإعفاء اللحية، فهل يروي أبو هريرة حديثاً ثم يكون أول من يخالفه؟! وفي مطلق الأحوال، لا يحتاج الأمر لكثير من الذكاء حتى نستطيع أن نخمن موقف صناع المسلسل من أبي هريرة رضي الله عنه، إلا أن إظهاره بمظهر ضعيف، وفي مشهد كان واضحاً فيه أن المسلسل يقرّر بأن عمر رضي الله عنه كان معارضاً لرواية الحديث، هو غش واضح للجمهور، وتدلّس قبيح لا يخفى على مسلم عاقل يعي نوعية التوجه الفكري للقائمين على إعداد المسلسل.

9 - وجود جملة من الأخطاء اللغوية في أداء الممثلين، والتي سُمح لها بالمرور والعرض، ومردّد تلك الأخطاء هو ليس حتماً لنص الدكتور وليد سيف، وإنما مصدرها سوء فهم الممثلين لها أو سوء حفظهم أو سوء أدائهم، ورغم وجود مدقق لغوي أشرف على الأداء التمثيلي للعبارة الفصيحة، ورغم أن حاتم علي هو مخرج تميز باهتمامه بأدق التفاصيل، إلا أن حلقات المسلسل كلها أو معظمها لم تخل من أخطاء لفظية مزعجة، كان أولى بالمشرف اللغوي ومخرج المسلسل ومن له علاقة بها أن يقوموا بضبطها وإصلاحها وعدم السماح لها بالمرور إلى واجهة العرض النهائي.

وختاماً لهذه الفقرة أقول، بأن حاتم علي قد أجاد وأحسن في مشاهد، وأساء وأخطأ في مشاهد أخرى، ولم يخلُ مسلسله من مشاهد جميلة مؤثرة كما لم يخلُ من أمور منغصة تفسد متعة المشاهدة، إلا أنني أجزم بأنه قد سبق من حاتم علي

مسلسلات كانت أفضل بكثير من مسلسل عمر، رغم أنها لم تحصل على نفس القدر من الاهتمام الإعلامي والدعائي الذي حصل عليه هذا الأخير.

وبذلك، بحسب رأيي، لا يصل المسلسل مع الأسف الشديد إلى مستوى الحملة الإعلانية الضخمة التي روجت له، ووصفته على أنه أضخم إنتاج درامي عربي، فمهما كان المسلسل متفوقاً في مادة الإنتاج وما يرافقها من أرقام وإحصاءات، إلا أن العبرة في الإبداع الفني لا تقاس بالضرورة بأرقام التكاليف الإنتاجية بقدر ما تقاس بقدرة المخرج على إبحار المشاهد وانتزاع إعجابه وتقديره.

• شخصيات المسلسل ، الاختيار والأداء :

مما لا شك فيه أن عنصر الشخصيات في مسلسل عمر قد شكل تحدياً كبيراً لحاتم علي، وذلك لسببين أولهما سابقة التجسيد التي ستوجه كثيراً من الأنظار المرتابة نحو المسلسل، وثانيهما كون المسلسل يعالج مرحلة فجر الإسلام، وهي مرحلة قد عولجت درامياً مرات عديدة عبر الأفلام والمسلسلات، وقد شاهدها المتابع العربي مرات عديدة بأشكال مختلفة، وشاهد عدداً من شخصيات الصحابة وكفار قريش وغيرهم يمثلهم ممثلون مختلفون في كل مرة، فكان على حاتم علي أن يقدم في مسلسل عمر جديداً يغلب على ما سبقه، ويرسخ في الأذهان صوراً جديدة لشخصيات تلك المرحلة تلغي ما كان قبلها وتحل محلها.

ومما يجدر ذكره أيضاً، أن مسلسل عمر جاء في ظرفية سياسية خاصة تضيف إلى إشكالية تجسيد الصحابة إشكاليات أخرى تتعلق بالممثلين أنفسهم، فقد كنا نسمع قديماً وحديثاً انتقادات حول تجسيد بعض الشخصيات المسلمة من طرف ممثلين نصارى، وكان ذلك سبباً كافياً لمحاربة العمل والممثل والمخرج بغض النظر عن

احترافية الأداء، إلا أننا الآن نواجه معطًى جديداً ذا طبيعة سياسية، وكان سبباً في إحداث تصنيفات جديدة للممثلين تختلف عن التصنيف القديم (مسيحي / مسلم).

إنني أتحدث هنا عن الثورة السورية، وانقسام مواقف الممثلين بخصوصها، الأمر الذي أشعل حروباً إعلامية طاحنة بين أنصار الثورة وأعدائها، كما قد برزت إلى السطح في الآونة الأخيرة تقسيمات دينية لم نكن نسمع بها من قبل، وعلى ذلك فقد تعرض الممثلون والفنانون من مختلف دول العالم العربي في الآونة الأخيرة لحمات تصنيف شرسة وواسعة المدى، وضعت بعضهم في قائمة الشرف عرفاناً لهم بالوقوف مع الشعب السوري في ثورته ضد النظام الدموي المستبد، ووضعت بعضهم الآخر في قوائم العار ومزابل التاريخ بسبب مواقفهم المخزية التي أصرت على لزوم التأييد لنظام بشار الأسد.

هذه التصنيفات الجديدة التي وُلدت حديثاً من التصريحات الإعلامية للممثلين بخصوص مواقفهم مما يحدث في سوريا، والتي سترفع من شعبية ممثلين وتسقط شعبية آخرين، سيكون لها بالتأكيد دور لا يمكن تجاهله في تحديد الانطباعات عنهم وبالتالي عن الشخصيات التي يقومون بأدائها، على غرار ما كان يحدث من جدل حول الممثلين النصاري. فنحن بعد أن لم نكن نعلم تقسيماً للممثلين سوى (مسلم / مسيحي)، فإن الجمهور العربي في مستقبل الأيام سيكون على موعد مع تقسيمات أخرى، وجدل آخر أكثر حدة، (مسلم / مسيحي)، (سني / شيعي)، (مسلم / نصيري علوي)، (مؤيد للثورة السورية / شبيح مؤيد لنظام بشار).

إلا أن ما أود الإشارة إليه قبل الشروع في التعليق على بعض الأدوار التمثيلية في المسلسل، هو أنه لن يكون هنالك أي تضمينٍ لهذه الاعتبارات التصنيفية في تقييمي لأداء ممثل من الممثلين، لكوني أنظر في أداء أحدهم لكفاءته فقط ولا شيء

غير الكفاءة، لذلك لن يجد القارئ في التعليقات التي سيقراها أي اعتماد على تصنيف من التصنيفات التي خضع لها الممثل، بل إن ما يهمني أثناء مشاهدي للعمل، وما أؤكد عليه، أن أتجرد من الصورة الذهنية للممثل في هيئته الحقيقية وأفكاره الحقيقية، وأركز فقط على صفته في المسلسل ومدى براعته في أداء الدور.

لن أستعرض كافة شخصيات المسلسل فعددها كبير والمقام يضيق بذكرها، وإنما اخترت بعضها فقط ممن كان لهم انطباع مميز ودور محوري في المسلسل.

* عدسة الكاميرا / رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كما سبق ذكره، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عُبر عنه في مسلسل عمر بأسلوب عدسة الكاميرا، والتي كان لها دور التجسيد لمجال رؤيته صلى الله عليه وسلم، وليس مسلسل عمر هو أول من يقوم بهذه الحركة بل قد سبق ورأيناها في فيلم الرسالة، وأيضاً في مسلسل قمر بني هاشم لكن بشكل أكثر تطوراً، بحيث رافق عدسة الكاميرا عنصران آخران أحدهما بصري، وهو عصاه صلى الله عليه وسلم، والآخر سمعي، وهو النغمة الموسيقية المصاحبة دوماً لظهوره، ذات الصبغة الإسلامية واللحن القريب من لحن الأذان.

ولست أدري هل استُخدمت نفس هذه الحركة في عمل آخر غير هذين المسلسلين، لكنها على كل حال لم تثر جدلاً، ولم يُعلق عليها، بل تُلقِّت بالصمت والقبول، رغم ما فيها في الواقع من اقتراب متزايد في المعالجة الدرامية لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو وإن لم يجسد صورةً ولا صوتاً، إلا أن أسلوب عدسة الكاميرا يقتضي بالضرورة تجسيد مجال رؤيته، وأيضاً حركته واقفاً أو قاعداً أو ماشياً أو راكباً.

ولسنا ندري حتى الآن هل سنكون على موعد مع مزيد من الاقتراب من تجسيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل ستتحقق مخاوف البعض التي ترى أن ما حدث في مسلسل عمر من تجسيد للخلفاء الراشدين هو ليس سوى تمهيد لتجسيد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

الأمر على كل حال لا يهم كثيراً، بل وأستبعد بشدة أن تكون هنالك أية محاولات مستقبلية لهذا التجسيد الذي يرفضه جميع المسلمين دون استثناء، حتى الذين وافقوا منهم وشجعوا على تجسيد الخلفاء الراشدين وبقية الصحابة.

بقيت الإشارة إلى إحدى النقاط المهمة التي ذكرها المخرج حاتم علي في إحدى مقابلاته التلفزيونية، والمتعلقة بموقفه من تجسيد الشخصيات الإسلامية المقدسة، فحاتم علي يرى أن عدم تجسيد شخصيات الصحابة هو تهميش لها من الناحية الدرامية، وتهميشها من الناحية الدرامية هو تهميش لها من الناحية التاريخية، وعلى هذا المستند يرى حاتم أنه بتجسيده لشخصيات الصحابة يعيد لها اعتبارها المفقود ويتعد بها عن التهميش الدرامي الذي يضر بصورتها ومكانتها التاريخية.

مناقشة هذا الرأي تتطلب استحضار بعض الأسئلة التي تطرح نفسها، وأولها متعلق بتجسيد شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا سلمنا بصحة رأي حاتم علي في هذا المجال، فإن ذلك سيقودنا بالضرورة إلى اعتبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هُمش درامياً بعدم تجسيده، وبذلك فعدم تجسيده هو تهميش له من الناحية التاريخية أيضاً، فهل ذلك صحيح؟

الإجابة طبعاً هي لا، وعليه يكون هذا التبرير لحاتم علي غير مقبول دائماً، وغير ساري المفعول في كافة السياقات الدرامية، وإلا جاز أن يُستند عليه لتجسيد

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كنا نربأ بالخلفاء الراشدين عن تهميشهم تاريخياً بعدم التجسيد، فكيف نقبل بتهميش من هو أفضل منهم؟ عليه الصلاة والسلام.

علاوة على ذلك، ومن وجهة نظر فنية بحتة، فإن عدم تجسيد بعض الشخصيات قد يكون عاملاً من عوامل تقديرها والإعلاء من شأنها، لا سيما إن قُدمت المشاهد التي تخصها بطرق معينة توحى بمدى عظمتها وهيبتها واحترام الآخرين لها، وهذا بالطبع مُشاهد بكثرة في كثير من الأعمال المعاصرة قديماً وحديثاً، ففي كثير من تلك الأعمال نتعلق بذلك الشخص الغامض الذي لا يظهر بشكله الكامل أمام الشاشة، كرئيس عصابة أو شخص يعمل يداً خفية أو غير ذلك، بحيث قد لا يظهر منه في البداية سوى ظله أو مكان جلوسه أو أجزاء من جسمه كالقلم واليد والساقين، ثم لا يظهر كاملاً سوى في نهاية المسلسل أو الفيلم، وبذلك يكون عدم تجسيده عاملاً من عوامل الإعلاء من شأنه وليس العكس.

نفس هذا المبدأ يمكن تطبيقه على شخصيات الصحابة، فعدم تجسيدهم هو ليس بالضرورة تهميش لهم، كما أن تجسيدهم لا يعني بالضرورة عدم تهميشهم.

السؤال الوحيد الذي ينبغي أن يظل مطروحاً للبحث والتحليل والنقاش هو :
(كيف جُسِّد الصحابة؟)، وأيضاً (كيف تُعْمَل مع المشاهد التي يظهر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟).

* سامر إسماعيل / عمر بن الخطاب :

لم يقع اختيار حاتم علي على الفنان الناشئ سامر إسماعيل، لأداء دور عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا بعد رحلة اختيار طويلة شملت عدداً من الممثلين،

اختبرهم مخرج العمل بدقة وعناية، لينتهي به المطاف إلى اختيار سامر إسماعيل ليقوم بهذا الدور البالغ الصعوبة.

فلا شك إذاً أنها كانت مغامرة عظيمة من المخرج، وخطرة أيضاً، تتجلى خطورتها في كون المسلسل أول عمل درامي يجترئ على تجسيد الخلفاء الراشدين، وخاصة منهم عمر بن الخطاب وهو بطل المسلسل، وأيضاً في كونه اختار ممثلاً شاباً حديث التخرج، طارئاً على التمثيل، ليس له سابق خبرة في مجال العمل الدرامي، فكان أدائه لدور عمر هو أول وقوف له أمام الكاميرا.

وضعٌ حرجٌ كهذا يجعل من اختيار حاتم علي للممثل الذي سيؤدي دور عمر رضي الله عنه مسؤولية تاريخية، لا تقل أهمية عن مسؤولية الممثل الذي سيقوم بأداء الدور، فما قدمه مسلسل عمر من خطوة هي الأولى من نوعها ليس حدثاً عادياً يتكرر كل عام، بل هو مما يرقى لأن يكون حدثاً تاريخياً سيحفظه تاريخ الدراما العربية وتاريخ الفكر الإسلامي الذي استجدت فيه مسألة تجسيد الشخصيات المقدسة بما فيها من خير وشر وصواب وخطأ ورأي ورأي آخر.

لقد بدأت الحملة المضادة للمسلسل قبل عرضه ببعض الوقت، وكان الهجوم على الممثل سامر إسماعيل جزءاً من تلك الحملة، وقد كان الهجوم عليه على مستويين، المستوى الأول صورته الشخصية المنتشرة، بحيث شاع في شبكة الانترنت أناسٌ نشروا صورته قائلين : (أهذا من سيمثل دور عمر؟!)، أما المستوى الثاني فهو ما تردد من إشاعة كونه نصرانياً، وهو الأمر الذي أنكره حاتم علي مؤكداً على أن سامر هو مسلم سني، في حين أنه لا مشكلة لديه في أن يكون الممثل مسيحياً.

ثم عُرض المسلسل، وكما كان متوقعاً انقسمت الآراء بين معجب بأداء سامر إسماعيل لدور عمر بن الخطاب، وبين من لم يعجبه أدائه، وفي اعتقادي والله أعلم،

أن من لم يعجبهم أداء سامر إسماعيل هم أكثر عدداً ممن أعجبوا به، فكثيرون قد اعترضوا على ما وصفوه بالاختيار السيئ للممثل، وعلى أداء الممثل الذي وصفوه بالبرود وعدم التأثير، بل ذهب بعضهم إلى الحكم على المسلسل بالفشل في عرض شخصية عمر بن الخطاب بشكل مؤثر وصادق بما يكفي، وذلك بسبب ضعف الأداء التمثيلي لسامر إسماعيل.

لكن، وبعيداً عن الأحكام الانطباعية الرائجة، سأحاول في هذه الفقرة وقبل أن أتطرق لرأيي الشخصي في أداء الممثل، أن أتناول الموضوع من جوانبه المختلفة قدر الإمكان.

بدايةً، تربّص كثير من المنتقدين بنسبة تطابق الوصف الشكلي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين أوصاف سامر إسماعيل، سواء منها ما كان طبيعياً في حلقة الممثل أو ما يتصرف فيه المخرج، ثم كان أن رُصدت عدة فروق بين ما ذُكر في كتب التاريخ من أوصاف عمر وبين الشكل الذي ظهر عليه سامر إسماعيل في المسلسل.

وقبل أن ندخل في التفاصيل المتعلقة بهذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن حاتم علي قد اجتهد بما ليس من العدل جحوده، في أن يظهر شخصية الفاروق عمر رضي الله عنه بأسلوب جيد ومؤثر، وسواء نجح في ذلك أم لا، إلا أن مجهوده ومجهود الفنان سامر إسماعيل كان أوضح من أن تنكره العيون.

نأتي الآن للحديث بشيء من التفصيل عما انتهجه حاتم علي لكي يرسم في أذهان المشاهدين، بالاشتراك مع سامر إسماعيل، أول صورة مجسدة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقد حرص حاتم علي على أن تتوفر في الممثل الذي يختاره لأداء هذا الدور الكبير مواصفات عديدة، ينبغي أن تطابق، أو أن تقترب ما أمكن، من المواصفات الحقيقية لعمر بن الخطاب، ومن أهم تلك المواصفات طول القامة، وضخامة الجسم، وجهورية الصوت، والبياض المشرب بحمرة، والنظرة الحادة، وقابلية ملامح الممثل لتجسيد القسوة والرقّة، وأيضاً قابليتها للتكبير بواسطة الماكياج، وذلك لأن المسلسل يغطي زمناً طويلاً من عمر الفاروق يمتد من سنه الثامنة عشرة وحتى سن وفاته وهو الثالثة والستون.

ويمكننا هنا أن نستحضر اختيار المخرج للفنان سامر إسماعيل، وأن نحاول وضع مقارنة بسيطة تبين لنا مدى تطابقه مع هذه الصفات المذكورة، وهي من الصفات الثابتة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

1 - نبدأ مع طول القامة، وسامر إسماعيل يتميز فعلاً بقامته الطويلة التي كانت من أسباب اختيار حاتم له لأداء الدور، ويمكننا أن نلاحظ أنه في معظم الأحيان يظهر أطول قامّة من بقية الشخصيات في مشاهد المسلسل، إلا أنه مع ذلك لا يصل إلى التصور السائد عن مدى طول قامته سيدنا عمر، والذي وُصف بأن قدماء كانتا تصلان إلى الأرض إذا ركب الفرس، وهذه صفة لا تصح إلا لرجل فارح الطول بشكل عملاقيّ يلفت الأنظار.

2 - ضخامة الجسم، وهذه نقطة خانت اختيار المخرج، فسامر إسماعيل ليس ضخيم الجسم وليس بديناً، بل هو معتدل الحجم، ولا يترك لدى الناظر إليه ذلك الانطباع بالقوة والضخامة الشديديتين.

3 - جهورية الصوت، وهذه كانت من أسباب اختيار حاتم لسامر، وهو يتميز فعلاً بصوته الجهوري الغليظ، لكن حاتم قرر في نهاية المطاف أن يتخلى عن

صوت سامر بشكل نهائي، وذلك لأنه - بحسب تصريح المخرج - رغم جمهوريته ينضح بعنفوان الشباب، مما لم يكن سيليق بالمشاهد التي يتقدم فيها عمر في السن، فكان أن اختار دبلجة صوته من طرف الفنان أسعد خليفة، وهو ذو صوت جهوري غليظ يقبل الارتفاع والهدوء ويليق بالأعمار المتقدمة أيضاً. قرار دبلجة صوت سامر إسماعيل قد انتقد بشدة، واعتبره البعض سقطة من سقطات المخرج، إلا أنني في حقيقة الأمر أعتبرها خطوة ذكية وجاءت في محلها تماماً، ولم ألاحظ ما يمكن أن نعييه في دبلجة الصوت كعملية اختيار ونفذت، ولا في صوت أسعد خليفة وملاءمته لشكل سامر في دور عمر، سوى ما كان في بعض المشاهد من فتور وانخفاض في أداء الصوت، بدا عمر فيها يتحدث بصوت وإن كان غليظاً إلا أنه خافت منخفض، وهذا يخالف ما عُرف عنه من كونه إذا تكلم أسمع، إلا أن هذه الملاحظات لم تنطبق سوى على بعض المشاهد فقط، أما على وجه العموم فقد (أسمعنا) أسعد خليفة صوتاً متميزاً.

4 - البياض المشرب بحمرة، فسامر إسماعيل أبيض اللون، وليس أسمر شديد السمرة، إلا أن بياضه مع ذلك ليس بالبياض الشديد الذي يكون مشرباً بحمرة، وبذلك يكون هذا الوصف المذكور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير متطابق تماماً مع سامر إسماعيل.

5 - النظرة الحادة، وقابلية الملامح لاحتواء تعابير الرقة والقسوة، وهنا يمكننا القول بأن حاتم علي قد وُفق في اختيار الشخص المناسب بخصوص هذا الجانب، فلسامر إسماعيل نظرة حادة، يستطيع جعلها ثابتة وقاسية في المشاهد التي تتطلب ذلك، ويستطيع أيضاً أن يجعلها لينة رقيقة في المشاهد التي تتطلب اللين والرقة. يمكنني

القول أن عنصر النظرات هو من العناصر التي نجح فيها حاتم علي اختياراً، وسامر إسماعيل تمثيلاً وأداءً، وبذلك اعتبره نجاحاً يضاف إلى رصيدهما معاً.

6 - قابلية الملامح لاحتواء مجال عمري متسع. نذكر هنا أن سامر إسماعيل من مواليد سنة 1986، وقد كان في الخامسة والعشرين من عمره عند تصوير المسلسل، لكن كان عليه مع ذلك أن يلعب دور رجل في الأربعينيات أو الخمسينيات من عمره، وشيخاً جاوز الستين من عمره أيضاً. نستطيع القول بأن حاتم علي باختياره لملامح تقبل (التكبير) على حد تعبيره، وبأن فريق الماكياج البارع الذي عمل على إعداد شكل سامر وملامحه، قد نجحوا في إضفاء ذلك الطابع العمري المتقدم على سامر رغم أنه في حقيقة أمره لا يزال شاباً، ولا يعود ذلك فقط إلى براعة المسؤول عن الماكياج إلا بقدر ما يعود إلى قابلية ملامح سامر نفسها لاحتواء الشكل المتقدم في السن، لكن مع ذلك، لم يسلم حاتم علي من عدد من الانتقادات التي تمس عدم التزامه الكامل بالأوصاف الثابتة تاريخياً لعمر بن الخطاب.

وقبل أن نشعر في الحديث عن التفاصيل المتعلقة بما التزم به حاتم علي وما لم يلتزم به، تجدر بنا الإشارة إلى أن حاتم نفسه قد صرح في مقابلة تلفزيونية أجرتها معه قناة العربية، بأنه لا يجبر نفسه على الالتزام الحرفي بالمواصفات المذكورة في مراجع التاريخ، قائلاً بأنه قد يلجأ إلى إحداث تعديل على بعض تلك المواصفات خدمةً للطرح الدرامي والفكري، أو مراعاةً لبعض الحقائق النفسية التي أعتقد أنها متعلقة ببعض المعايير المعاصرة للاستحسان وعدمه.

فإن الالتزام المطلق بالأوصاف التاريخية، لا سيما للشخصية البطلة، قد تنشأ عنه ضرورة لإظهار الشخصية بمظهر لا يقبل الاستحسان لدى الجمهور المعاصر، وذلك لأننا في زمن اختلفت فيه معايير الجمال والقبول عما كانت عليه في تلك

العصور القديمة، وعليه قد يلجأ المخرج، بحسب تعبير حاتم علي، إلى تشذيب بعض تلك الأوصاف لتصير مقبولة للمشاهد المعاصر، شرط ألا يتم نسف تلك المواصفات بشكل نهائي وتقديم شخصية لا علاقة لأوصافها على الإطلاق بالأوصاف التاريخية للشخصية المحسّدة.

وإني بصراحة لا أتفق مع حاتم علي في هذا الطرح، لأن قيامه بإخراج دراما تاريخية يعني لزوم تقديم رسم صادق وأمين للصورة القديمة الغائبة عن أعين المشاهدين، والتي لا حضور لها سوى في خيالهم المكون من معلوماتهم الخاصة، فالمخرج هنا ليس مسؤولاً عن تقديم الشخصية بمواصفات يتم تعديلها كي تلقى القبول والاستحسان من المشاهد المعاصر، بل هو مسؤول عن تقديم صورة مطابقة لما جاء في المراجع بغضّ النظر عن أية اعتبارات أخرى.

فالمشاهد سيكون أكثر سعادة بعمل تاريخي يجد أن شخصياته تتطابق مع المراجع التاريخية، من عمل يقوم بتشذيب الشخصيات وتعديل أوصافها خدمة للجمالية الدرامية أو مراعاة للمعايير النفسية المعاصرة للاستحسان، وذلك أمر قد يחדش مصداقية المخرج من جهة، ويחדش الصورة الذهنية التي يحاول الإنسان المسلم أن يكوّنها عن شخصيات تاريخه الإسلامي بناءً على الأوصاف التي يقرأها لها في المراجع التاريخية.

وننتقل الآن للحديث عن الرؤية الفنية التي وظفها حاتم علي ليصنع لنا من سامر إسماعيل (عمرًا) نتخيله، وأيضاً عن بعض الانتقادات التي نشأت من تلك الفروق المرصودة بين عمر حاتم وعمر الموصوف في المراجع.

1 - نبدأ بصفة الصلح، فعمر بحسب المراجع كان (أصلعاً)، أو (شديد الصلح)، وهي صفة لم يتجاهلها حاتم علي بشكل كامل لكنه في نفس الوقت لم

يأخذها كلية، فقد ظهر سامر كثيف الشعر في سنوات شبابه، وهذا أمر طبيعي، وفي مرحلة تقدمه في السن ارتأى حاتم علي أن يجعله أصلع جزئياً، أي أصلع مقدمة الرأس فقط، مع شعر كثيف يصل ليكون طويلاً بعض الشيء، واستمرت هذه الصفة حتى الحلقة الأخيرة من المسلسل، وهي صفة تخالف (شدة الصلع) المذكورة في مراجع التاريخ.

2 - يُذكر أيضاً أنه كانت لعمر رضي الله عنه سابلة، وهي الشارب الغليظ الكث، وأنه كان يفتل شاربه إذا غضب، وفعلاً نلاحظ أن حاتم علي قد تعمد اختيار شارب كث بشكل واضح لسامر إسماعيل، فوافق بذلك إلى حد ما الصفة المذكورة، لكننا لم نشاهد سامر يفتل شاربه في حال غضبه، بحيث لم يضمّن هذا الفعل في أي مشهد من مشاهد المسلسل.

3 - أما صفة لحيته فقد كانت كثة، تطول في مقدمتها وتخف عند العارضين، وكان يخضبها بالحناء، ونلاحظ هنا أن حاتم علي قد جعل لسامر لحية كثة، مخضوبة، لكن صفة طولها هي خلاف ما ذكر في وصف الفاروق، فقد كانت كثيفة عند العارضين وقليلة الطول في المقدمة، وبذلك تكون صفتها في المسلسل عكس الصفة المذكورة في المراجع.

4 - وأما ثوبه رضي الله عنه فكان بالياً خلقاً يرقعه بعد توليه للخلافة، وقد جعل لسامر إسماعيل ثوب بالٍ عتيق كثيب اللون، لكن لم نشاهد عليه آثار ترقيع.

5 - وبالحديث عن صفة مشيته رضي الله عنه فقد كانت مشية سريعة، وهو ما يخالف ما ظهر عليه سامر إسماعيل في المسلسل، بحيث كان يمشي في معظم الأحيان بهدوء وتؤدة.

6 - ومن صفاته رضي الله عنه أنه كان أعسر يستخدم يده اليسرى، وهو مما حرص مخرج المسلسل على تثبيته وإبرازه في أداء الممثل سامر إسماعيل، فقد رأيناه يمسك عصاه بيده اليسرى دائماً، إلا أن ضعفاً واضحاً لوحظ في بعض مشاهد المعارك التي أداها سامر إسماعيل، بحيث بدا جلياً عدم إتقانه لحمل السيف بيده اليسرى، وهذا خطأ كان يمكن تجاوزه بسهولة لو أن سامر إسماعيل قد أدى مشاهد القتال بيده اليمنى ثم تُعكس الصورة ليدو كالمقاتل بيسراه.

7 - بقيت الإشارة إلى ما روي عنه من أن في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء من خشية الله، وهو تفصيل لم يُدرج في المسلسل.

وعلى وجه العموم، ورغم كل ما سبق، يمكنني القول بأن حاتم علي قد نجح في تقديم شخصية مميزة لعمر بن الخطاب أعادت تجسيد عدد من مواقفه الخالدة بشكل في غاية التأثير والبراعة، وإن كنت في الحقيقة، من وجهة نظر شخصية، مازلت إذا قرأت عن عمر بن الخطاب أتخيله بصورة مغايرة لما ورد في المسلسل، وهي الصورة الأقرب لما كنت أتخيل سابقاً بناءً على ما قرأته من أوصاف له رضي الله عنه.

أما على مستوى الأداء التمثيلي للفنان سامر إسماعيل، فقد ذكرنا بأنه تعرض لانتقادات كثيرة ربما تجاوزت ما حصل عليه من إعجاب كبير أيضاً، وأهم ما انتقد في أداء سامر الجمود والرتابة وضعف لغة الجسد، والحق أن إسناد دور بهذا الحجم لممثل حديث التخرج كان مغامرة عظيمة للمخرج والممثل معاً، إلا أنه يمكنني القول بأن سامر قد اجتاز الاختبار بنجاح وقدم أداءً جيداً للغاية، على الأقل بالنسبة لممثل يقف أمام الكاميرا للمرة الأولى في عمل درامي هو الأكبر من نوعه.

ولا شك في أن أداء سامر وإن كان لا يصل في الإتقان إلى أداء بعض عمالقة الدراما مثل تيم حسن وجمال سليمان وغيرهما ممن يتفاعلون مع الدور بكافة تفاصيله

الدقيقة من نظرة عينٍ ونبرة صوتٍ وحركة ملامح ولغة جسد، إلا أنني أعتبر ما حققه سامر إنجازاً يستحق الاحترام والتقدير، ولا سيما في الحلقات الأخيرة من المسلسل التي غطّت مرحلة خلافة عمر الراشدة.

* غسان مسعود / أبو بكر الصديق :

هو يُعتبر بلا شك (حدثاً تاريخياً) لا يقل أهمية عن (حدث) تجسيد شخصية عمر بن الخطاب، أن يتم القيام بتجسيد شخصية ثاني الخلفاء الراشدين وأفضل إنسان قبل عمر بن الخطاب وبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانت للممثل العالمي المقتدر غسان مسعود سابقة تجسيد خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

بوسعنا القول إن تجسيد شخصية أبي بكر كان يُفترض، من وجهة نظر منطقية، أن يثير جدلاً أكبر من تجسيد شخصية عمر بن الخطاب إذا ما وضعنا في عين الاعتبار مسألة الأفضلية بين الشخصيات، إلا أن تجسيد أبي بكر الصديق مر بهدوء ولم يُحدث عنه إلا قليلاً، ومرّد ذلك كما هو واضح إلى أن بطولة المسلسل لم تكن له بل كانت لعمر، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل في مطلق الأحوال أنه قد تم ولأول مرة في التاريخ تجسيد شخصية ثاني الخلفاء الراشدين في عمل درامي.

كان قد انتابني فضول وأنا أتابع المشاهد الأولى من المسلسل، كي أعرف من سيقوم بدور أبي بكر الصديق، وكان أن انكشف الأمر في الحلقة الثانية التي شهدت أول ظهور له مجسداً من طرف غسان مسعود. لا أخفي أنني ساعتها شعرت باطمئنان كبير ولم يحصل لي أي تخوّف على أداء شخصية أبي بكر، والآن أقول بعد أن انقضى المسلسل بأن الدور لم يخيب ظني مطلقاً، بل ربما قد تجاوزه إلى أحسن

منه. بل يمكنني القول إن دور أبي بكر الصديق كان من أفضل أدوار المسلسل اختياراً للممثل وأداءً من الممثل، فغسان مسعود هو محترف يصنف ضمن كبار الممثلين على الصعيد العالمي، وسبق له في الدراما التاريخية أدوار مهمة قام بأدائها على أحسن وجه من البراعة والإتقان، وقد كان في دور أبي بكر أكثر براعة وإتقاناً.

إلا أن ثمة انتقاداً لم يسلم منه، وهو انتقاد يُردُّ إلى المخرج وليس إلى الممثل، ويتعلق بالهيئة العمرية التي ظهر عليها أبو بكر الصديق، يقول الانتقاد : بأن من المعلوم أن أبا بكر رضي الله عنه يصغر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحوالي سنتين، أي أنه في الأيام الأولى من البعثة كان في أواخر الثلاثينيات من عمره، وهو سن شاب، إلا أنه قد ظهر في المسلسل شيخاً قد جاوز الستين.

حاولت أن أرصد هذه الملاحظة في حلقات المسلسل، فوجدت أن أبا بكر قد ظهر بهيئتين مختلفتين، الأولى أبرزته أصغر سناً والثانية أظهرته شيخاً، وتفصيل ذلك في لون لحيته.

فلو شاهدنا ظهور أبي بكر في الحلقة الثانية فسنجد أن لحيته تظهر سوداء ولما يخطُّها الشيب بعد، في دلالة على أن الرجل لا يزال شاباً، لكن هذا الشكل لم يدم طويلاً فسرعان ما ظهر بلحية شيباء تماماً وفي مَشاهد تعود لزمن كان الإسلام فيه لا يزال جديداً، أي في وقت أبكر من اللازم بكثير. فلا يعقل إذاً أن الرجل قد انتقل من سن الشباب إلى سن الشيخوخة، وأن لحيته قد شابت كلها خلال زمن قصير جداً، وهذا مما يمكن اعتباره خطأ إخراجياً كان من الممكن تجاوزه مع الأسف.

أما ما عدا ذلك فلا أستطيع سوى أن أقف موقف الإشادة والإعجاب باختيار غسان مسعود لهذا الدور من طرف المخرج حاتم علي، خاصة وأن الهيئة التي ظهر عليها أبو بكر في المسلسل هي قريبة جداً من هيئته التي كنت أتخيله عليها منذ

القديم وقبل عرض المسلسل، كما أنها قريبة إلى حد مقبول جداً من وصفه رضي الله عنه كما ورد في المراجع.

* تامر العرييد / عثمان بن عفان :

إن كان علي أن أقول بأن متابعتي للمسلسل لم تخل من منغصات هنا وهناك، فيؤسفني بشدة أن أقول بأن دور عثمان رضي الله عنه كان من تلك المنغصات.

ولمزيد من التفصيل، ولو أردنا أن نقسّم تقييمنا للدور إلى أقسامه الثلاثة (التأليف والإخراج والتمثيل)، فسأقول بأنه قد أسىء إلى دور عثمان بن عفان تأليفاً وإخراجاً، أما التمثيل فلا انتقاد لي عليه لأن الفنان تامر العرييد قد أدى دوره بإتقان جميل لا يدع لي مجالاً لانتقاده، فالمشكلة ليست في أداء الممثل مطلقاً، وإنما في النص الدرامي والإخراج.

لقد لوحظ، وهذا ما يمكننا قراءته في عدد من المقالات، تغييب شديد لشخصية عثمان بن عفان رضي الله عنه، فهي لم تظهر سوى بشكل متقطع جداً وفي مشاهد مبعثرة هنا وهناك، وبطريقة جعلت منه مجرد شخصية ثانوية لا دور لها في العمل سوى كجزء من خلفية المشاهد، وعنصر صامت من العناصر الحاضرة في المجالس والأحداث.

لا أستطيع أن أفهم سبباً لهذا التغييب المتعمد، وكان الأجدر بالكاتب والمخرج أن يمنحوا الخليفة الثالث دوراً أوسع يسمح له بأن يترسخ في أذهان المشاهدين، إلا أن ما حدث أن كثير من المشاهدين بدأوا يتساءلون فعلاً (أين عثمان لماذا لا نراه؟!).

وحتى على المستوى الشكلي، فإننا نلاحظ اختلافاً جوهرياً بين بعض الصفات الجسدية التي نقرأها عن ذي النورين رضي الله عنه، وبين الهيئة التي ظهر عليها الممثل

الذي أدى دوره في المسلسل، ولا سيما ما يتعلق بصفة لحيته رضي الله عنه، فما ورد في صفات عثمان الجسدية أنه كان كث اللحية عظيمها، إلا أنه ظهر في المسلسل بلحية صغيرة جداً حتى أنه كان أقل الخلفاء الأربعة لحيّة وبشكل واضح ! وهذا مما يدل على أن العاملين على المسلسل لم يلزموا أنفسهم بأي اهتمام خاص بشخصية عثمان رغم أنه ثالث الخلفاء الراشدين وتجسيد شخصيته للمرة الأولى يُعتبر هو الآخر حدثاً سيسجله التاريخ.

وهنا أجدني أقول في أسفٍ بأن شخصية عثمان التي ظهرت في المسلسل لم ترسخ في ذهني مطلقاً، ولا يحصل لي أي استحضار لها إذا ما ذُكر أو قرأتُ عنه، بل مازلت محتفظاً في خيالي عنه بصورة أخرى مغايرة تماماً، وتتكون من أوصافه التي قرأتها في المراجع.

دور عثمان بن عفان كان خطأ فادحاً من أخطاء المسلسل يتقاسمه كل من وليد سيف وحاتم علي معاً على حد سواء.

* غانم الزرلي / علي بن أبي طالب :

قام ولأول مرة بدور رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الفنان التونسي الصاعد غانم الزرلي، وهو ممثل شاب تخرج حديثاً في سنة 2010 وهي نفس سنة تخرج الفنان سامر إسماعيل الذي أدى دور عمر بن الخطاب.

لا يخفى على أحد أن طريقة ظهور الإمام علي بن أبي طالب في مسلسل عمر تطرح كثيراً من الأسئلة، ربما تتجاوز في مضمونها سؤال التجسيد إلى قضايا أخرى تقودنا نحو ساحة الخلاف الطائفي بين السنة والشيعة.

بل إن من بعض المفارقات أن يقتزن اسم (علي) إذا ما ذُكر بالطائفة الشيعية وكأنه حكر عليها، والحقيقة أنه رضي الله عنه محل تعظيم وتوقير من أهل السنة أيضاً، إلا أن شيئاً غريباً أثار انتباه الجميع في الشكل الذي ظهر عليه غانم الزرلي في أدائه لدور الإمام علي، وهو ظهوره متشابهاً تماماً إلى درجة تقترب من التطابق، مع الصورة التي يرسمها الشيعة للإمام علي، وهذا ما طرح عدة تساؤلات ونقاشات دفعت بالبعث إلى اتهام المخرج حاتم علي بالعمالة لإيران ومداهنة الشيعة وما إلى ذلك من تمهم يقطع النص الدرامي ببطلانها كما يقطع العقل الصريح بسخفها وتهافتها.

حاتم علي قد اختار أن يجسد شخصية الإمام علي رضي الله عنه بصورة متطابقة مع الصورة التي يرسمها الشيعة، وهي صورة تختلف في أوصافها عن أوصاف الإمام علي كما وردت في الكتب والمراجع السنية، فما الذي يحمل حاتم علي هذا الاختيار المثير للجدل؟

مما لا شك فيه أن مسألة العمالة لإيران أو مداهنة الشيعة هي محض أوهام يكذبها عنوان المسلسل نفسه، ونصه الدرامي أيضاً الذي أشار تلميحاتاً وتصريحاً، لأكثر من مرة، إلى طبيعة العلاقة التي جمعت بين علي بن أبي طالي وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وقد كانت علاقة أخوة ومصافاة تقوم على رابطة الإسلام التي جمعت بين كل من دخل هذا الدين بغض النظر عن لونه وعرقه وقبيلته.

فالنص الدرامي للمسلسل، في هذا الجانب، جاء موافقاً لمعتقد أهل السنة في إنكار الخلاف والعداء بين علي وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأينا علياً وهو يعانق عمر، وسمعنا عمر يقول "لولا علي لهلك عمر"، ورأينا كيف أن علياً يسمى أولاده أبا بكر وعمر، إلى غير ذلك من المشاهد التي تقرر موقف السنة وعقيدتها في هذا الموضوع.

وعلاوة على ذلك، فمجرد أن يكون المسلسل يحكي سيرة عمر بن الخطاب هو أمر كافٍ لإنكار أي اتهام للمخرج بمداينة الشيعة الذين يتقربون إلى الله بلعن أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه فإن الاستنتاج بأن المخرج يداهن الشيعة بإظهاره علياً يطابق رسومهم هو استنتاج ساقط لا يُلْتَفَت إليه.

إلا أنه مع ذلك لا يسقط السؤال المستغرب عن اختيار حاتم لإظهار علي بذلك الشكل المطابق لرسوم الشيعة له، وهو سؤال لا نملك إجابة قطعية عنه لأن هذا الموضوع لم يُناقش علناً في أي مقابلة أجريت مع المخرج، كما لم يصرح حاتم بأي شيء حول هذا الموضوع، إلا أنه في تقديري، والله أعلم، أراد أن يقدم علياً بالصورة التي سبق ورآه الناس بها سنة وشيعة، فرسمة علي المشهورة يعرفها المسلمون جميعاً بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية، وهي مترسخة في أذهانهم، ومألوفة عندهم، الأمر الذي دفع حاتم لتقديم الإمام علي بنفس الصورة التي يعرفه بها المسلمون جميعاً من السنة والشيعة، وذلك تفادياً لتقديمه بصورة مستغربة ربما تكون صادمة ومستنكرة.

ربما لا أتفق مع الأستاذ حاتم في ما ذهب إليه، لكوني مصرّاً على ضرورة الالتزام بالأوصاف التاريخية المذكورة في المراجع، إلا أنه، والحق يقال، قد أجاد تقليد الرسمة بشكل يدعو إلى الدهشة.

بل إنني أذهب إلى القول بأن اختيار الفنان غانم الزرلي تحديداً، من بين مئات الممثلين في العالم العربي من خليجه إلى محيطه، وإخضاعه لمكياج معين بحيث يجعله مطابقاً لرسمة الشيعة لعلي، هو مما يقوم دليلاً على عبقرية المخرج وخبرته ونفاذ بصيرته الفنية في وجوه الشخصيات.

فلا أعتقد أن أحداً منا، لو أنه رأى صورة لغانم في هيئته الطبيعية، سيستطيع التخيل بأن تلك الملامح هي الأكثر قابلية لتجسيد دور الإمام علي بشكل مطابق لرسمه الشيعة له، وسواء أكان حاتم علي هو نفسه صاحب هذا الاكتشاف الفني أم أنه أن أحداً آخر دله عليه، إلا أن عمله الإخراجي المتعلق به كان غاية في الإتقان والبراعة.

ولقد خضع دور علي، هو الآخر، لدبلجة صوتية كانت جيدة وملائمة له.

إلا أن ما لم يكن ملائماً للدور وهذا أمر ينبغي ذكره، ذلك الاختلاف الكبير بين البنية الجسدية للإمام علي كما نعرفها من خلال المراجع، وبين البنية الجسدية للممثل غانم الزرلي. فالإمام علي قد تميز بقوته الجسدية الهائلة، أما غانم فهو نحيف رقيق العود، لا يعطي ذلك الانطباع بالقوة الجسدية، وهذا مخالف لما كانت عليه هيئة علي رضي الله عنه كما نعرفها من خلال ما قرأناه عنها. لكن مخرج المسلسل على ما يبدو قد ركز في تجسيده لدور علي على ملامح وجهه واجتهد لكي يبرزها مشابهة للرسم السائدة عنه والمنتمة للطائفة الشيعية، ولما كان الممثل غانم الزرلي هو الأقرب لتلك الملامح فقد فضل اختياره متجاهلاً عنصر القوة الجسدية لشخصية الإمام علي.

وفي النهاية تظل مسألة تجسيد علي رضي الله عنه سابقة لها ما يليها في ما هو قادم من الأعمال الدرامية وما يصاحبها من جدل ديني وفكري وفني. وأجدني من الآن أطرح على نفسي السؤال التالي :

من سيكون الممثل الذي سيجسد دور علي في المرة القادمة ؟!

* جواد الشكرجي / أبو جهل :

وأنا أتجول عبر شبكة الانترنت بين المقالات التي كُتبت حول المسلسل رصدًا لردود الأفعال وبحثاً عن أفكار وانطباعات جديدة، لفت انتباهي وجود عدد من المقالات التي اختصّت في الحديث فقط عن دور أبي الحكم بن هشام الملقب بأبي جهل، والذي جسّد دوره الفنان العراقي جواد الشكرجي.

وما لفت انتباهي في تلك المقالات أنها جميعاً تقف بانبهار أمام الأداء المتميز لهذه الشخصية التي أضافت الشيء الكثير لأجواء المسلسل في حلقاته الأولى.

كان لأبي جهل دور متميز في المسلسل، ومكانة محورية جعلته يطغى على معظم مشاهد الحلقات الأولى، بشكل جعل من الجائز اعتباره واحداً من أبطال المسلسل، إلا أن كلاً من المخرج حاتم علي والفنان جواد الشكرجي كانا في مواجهة تحدٍّ كبير يتمثل في الصورة الطاغية في ذهن الجمهور العربي لشخصية أبي جهل، والتي جسدها الفنان المغربي حسن الجندي في فيلم الرسالة.

وبعد متابعة المسلسل والاطلاع عن كثب على الأداء المتفرد لتلك الشخصية المعقدة، ما عاد من شك في أن حاتم وجواد قد نجحا باقتدار في اجتياز التحدي وفرض الصورة الجديدة لشخصية أبي جهل على ذهن المشاهد بشكل أفضل وأجمل مما كانت عليه في فيلم الرسالة، وهذا ما يمكن اعتباره إنجازاً يضاف إلى الرصيد الفني لكل من حاتم وجواد.

لقد بدا بوضوح أن الفنان الكبير جواد الشكرجي قد تفاعل بشكل كامل مع الدور، وأداه بإتقان نادر، وذلك يشمل بالإضافة إلى هيئته الخارجية نظرات عينيه، ونبرة صوته، وطريقة نطقه للكلمات والجمل، ولغة جسده.

كل هذه عوامل جَسَّدت باحترافية بالغة ما تنطوي عليه شخصية أبي جهل من كفرٍ وشرٍّ وكِبَرٍ وعصبيةٍ وخطورةٍ وعداءٍ للإسلام والمسلمين.

ينبغي لي أمام هذا الدور المتميز أن أقف باحترام بالغ وأن أرفع قبعتي تقديراً وإشادةً بأداء احترافي نادر أضاف الشيء الكثير إلى الدراما التاريخية بإجماع المشاهدين والنقاد والفنانين العرب.

* غازي حسين / أمية بن خلف :

وكما تعود جمهوره منه، يظهر الفنان القطري غازي حسين مرة أخرى في دور الرجل الشرير والقاسي والمتسلط، وذلك في أدائه لدور رأس الكفر أمية بن خلف، وهو دور كان له من الحجم والمكانة ما لا يقل عن دور أبي جهل، وإن كان هذا الأخير ذا حضور أكبر في المسلسل.

لقد حرص غازي على تتبع أدق التفاصيل النفسية والجسمية المتعلقة بشخصية أمية بن خلف، مما ساعده على أدائها بشكل باهر وناجح للغاية، فقد تمكن من إظهاره بمظهر المتعطر المتخلف العصبي، جاحظ العينين وكثير اللهاث وضيق الفكر والأفق، والجبان من داخله أيضاً.

يضاف إلى ذلك أدائه الصوتي المتقن للحوارات ونطقه الجميل والمعبر للعبارات العربية الفصيحة.

غازي حسين في دور أمية بن خلف أضاف هو أيضاً الشيء الكثير للدراما التاريخية مما أمتع المُشاهد وأفاده.

* عبد الكريم القواسمي / الوليد بن المغيرة :

يتميز الفنان الأردني المتميز عبد الكريم القواسمي بقدرته على أداء الشخصيات الطيبة جداً، والشريرة جداً بنفس الدرجة من البراعة والإتقان.

إن آخر صورة ظلت عالقة في ذهني لهذا الممثل كانت أدائه لدور أبي صفوان في مسلسل الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو من الشخصيات الخيرة التي لازمت عبد الله بن الزبير، ولم أكن أستطيع ساعتهما أن أتصور بأن الممثل الذي يؤدي دور أبي صفوان قد ينجح في أداء دور شخصية شريرة، إلا أن دوره الجديد في مسلسل عمر أثبت لي أنني كنت مخطئاً.

فقد تمكن عبد الكريم القواسمي من إبراز ملامح الجحود والشر والاستكبار والعناد التي تميزت بها شخصية الوليد بن المغيرة، إلا أن ملاحظتي الخاصة بهذا الدور متعلقة بالنص الدرامي الخاص به، فظهور الوليد بن المغيرة كان متذبذباً وقليلاً ومفتقراً إلى التوازن مع ظهور بقية الشخصيات من كفار قريش، مما جعل حضوره في المسلسل باهتاً بعض الشيء وغير قادراً على التغلغل في وجدان المشاهد وذاكرته.

عبد الكريم القواسمي فنان مقتدر، وأدائه لدور الوليد بن المغيرة كان غاية في التميز، لكنني تمنيت لو حصلت تلك الشخصية على مساحة أكبر من الظهور لتكون موازية لأبي جهل وأميه بن خلف.

* حسن الجندي / عتبة بن ربيعة :

لم يزل الفنان المغربي الكبير حسن الجندي حاضراً في ذهن كل من شاهد فيلم الرسالة من العرب والمسلمين، وذلك لأدائه المتفوق لدور أبي جهل. والآن في مسلسل

عمر يعود الفنان حسن الجندي للظهور في عصر البعثة مجدداً بعد حوالي خمسة وثلاثين عاماً من ظهوره في فيلم الرسالة.

لم يجسد الجندي هذه المرة دور أبي جهل، بل كان له دور آخر لا يقل أهمية عنه وهو دور عتبة بن ربيعة، أحد كفار قريش ممن تميزوا بالذكاء والنباهة ورجاحة العقل وحسن الحوار، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرّ ابنه أبا حذيفة على حزنه عليه بعد أن مات كافراً، وكان يأمل أن تقوده رجاحة عقله إلى أن يدخل في دين الإسلام ويتبع سبيل الحق.

لقد نجح الجندي، وما كان أحد ليتوقع غير ذلك من ممثل قدير، في تجسيده لهذه الصفات وأدائه للدور، وهو بالإضافة إلى هيئته المهيبة ونظرته الثاقبة وصوته الرخيم، يتميز بنبرته الخاصة في نطق الجمل العربية الفصحى، وذلك على خلاف معظم الممثلين المغاربة الذين يُلاحظ في نبراتهم الفصحى ضعف وركاكة وطغيان للكنة المغربية، أما الفنان حسن الجندي فنطقه للعربية الفصحى سليم تماماً لدرجة أنه لا يمكنك أن تميز منه بأنه مغربي.

اختيار الفنان حسن الجندي للمشاركة في مسلسل عمر كان قراراً صائباً وحكيماً، وأضاف بلا شك مشاهد جديدة تضاف بدورها إلى الوثيقة الدرامية المجسدة للحظات من تاريخنا الإسلامي العريق.

* نجاح سفكوني / سهيل بن عمرو :

سهيل بن عمرو من الشخصيات التي كان لها حضور متميز في المسلسل امتد على مساحته كلها، بحيث ظهرت منذ الحلقات الأولى واستمر ظهورها حتى وفاتها في

الحلقة الأخيرة. كما أن ظهورها كان في كثير من الأحيان مرتبطاً بموضوع ركز نص المسلسل على معالجته، وهو حبس سهيل بن عمرو لولديه عبد الله وأبي جندل.

نجاح سفكوني، ممثل قدير ذو حضور متميز يلفت الأنظار إليه ببراعة أدائه لكافة الأدوار التي يجسدها مهما كان نوعها، يتميز خصوصاً بلامح وجهه المعبرة التي يبرع سفكوني في أن يطبع عليها الحالة النفسية للشخصية التي يؤدي دورها كيفما كانت تلك الحالة النفسية.

ملاحظته تتميز بالقدرة على الجمع بين الرقة والقسوة، الخير والشر، اللطف والعنف، صفات تصلح بالتأكيد لدور رجل كان من صناديد الكفر في قريش ثم أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه.

إضافة إلى ذلك، يتميز الفنان الكبير نجاح سفكوني بصوته المعبر وأدائه اللغوي الجميل للعربية الفصحى، مما منحه القدرة على أن ينجح في الوقوف خطيباً مفوهاً في قومه كما يليق بشخصية لُقب بـ (خطيب قريش).

* مي سكاف / هند بنت عتبة :

عند الحديث عن جانب المقارنة بين مسلسل عمر وفيلم الرسالة، نستحضر تلقائياً بعض الشخصيات المتميزة التي كان لها دور بارز في هذا الأخير، ومن تلك الشخصيات هند بنت عتبة بن ربيعة، والتي قامت بأداء دورها في الفيلم الممثلة السورية منى واصف، وفي المسلسل الممثلة السورية مي سكاف.

وكالعادة، ولأن الأداء الجيد يفرض نفسه دائماً، أجديني أقف موقف الإعجاب باختيار حاتم علي للفنانة مي لأداء هذا الدور، وبالأداء المتقن لهذه الأخيرة التي

استطاعت وتلك عاداتها، أن تجسد دور المرأة القوية المتسلطة ذات الرأي النافذ والشخصية الآسرة.

كما قد منح النص الدرامي للمسلسل شخصية هند دوراً ذا مساحة كبيرة تكفي لترسيخ الشخصية في ذهن المشاهد بتفاصيلها النفسية المعقدة، وعليه يكون ظهور الشخصية في المسلسل ناجحاً ومتفوقاً على نظيره في فيلم الرسالة، وذلك على المستويات الثلاثة، التأليف والإخراج والتمثيل.

* فتحي الهداوي / أبو سفيان صخر بن حرب :

أبو سفيان شخصية مثيرة للجدل التاريخي، وقد رُصدت طريقة تقديم المسلسل لها من طرف بعض الملاحظين الذين ذهبوا إلى الاستنتاج بأن المسلسل قد تعمد الانتقاص منه والتقليل من شأنه، إلا أن ذلك بحسب اعتقادي غير صحيح.

فالمسلسل قد أجاد في إبراز الملامح النفسية المعقدة لشخصية أبي سفيان، سواء على مستوى النص الدرامي وحتى على مستوى أداء الممثل التونسي المتميز فتحي الهداوي.

لقد جسّد المسلسل بنجاح عناد أبي سفيان في بداية الإسلام وعداءه له، ثم إسلامه على مضض بعد الفتح، ثم جهاده في سبيل الله، ثم غضبه من عمر في الحلقة الأخيرة واستغفاره الله بعد نصيحة سهيل بن عمرو، كل ذلك جسّده باحترافٍ رائع الفنان فتحي الهداوي والذي تميز بنطقه الفصيح وبراعة تجسيده للانفعالات النفسية عبر لغة جسده وتعايير وجهه.

يبقى التذكير بأن المسلسل رغم ذلك تعمد، لأسباب ما، التغييب التام لشخصية ابنه معاوية بن أبي سفيان.

* زياد تواتي / وحشي بن حرب :

وهنا شخصية خطفت الأضواء أو كادت، من بطل المسلسل نفسه عمر بن الخطاب في حلقات المسلسل الأولى، ولم يكن دور وحشي محل إعجاب وتقدير من المتابعين إلا بقدر ما كان محل انتقاد أيضاً، بسبب التركيز الشديد للمسلسل عليه وبشكل فاق تركيزه حتى على عمر بن الخطاب.

بدا واضحاً أن النص الدرامي قد تعمد تسليط مزيد من الأضواء على شخصية وحشي، وذلك في معرض معالجته لموضوع الحرية والعبودية. وعلى النقيض تماماً من فيلم الرسالة الذي أظهر وحشي بصفة وحشية حقاً، لا يتكلم ويلبس جلد النمر، فقد جعل مسلسل عمر من وحشي إنساناً مفكراً متكلماً ذا وجدان ومشاعر وآراء وأفكار، يحلم بالحرية ويحب فتاة يرغب أن يتزوجها، وتربطه علاقة خاصة مع شريكه في العبودية الذي أسلم وعُذب ثم أعتق بلال بن رباح رضي الله عنه.

حوارات وحشي مع محبوبته ریحانة كلها من خيال المؤلف ولا أصل لها في التاريخ، وكذلك علاقته مع بلال بن رباح وما دار بينهما من أحداث وحوارات ومشاعر متبادلة، وكل تلك الحوارات كانت تهدف لوضع افتراضات نفسية تناقش موضوع العبودية والتحرر، وكاتب المسلسل وليد سيف كثيراً ما يفعل هذا، إذ يفترض في نفسيات شخصياته أحوالاً يشتق منها حوارات يُدرجها في المسلسلات التي يكتب نصوصها الحوارية.

ما فعله وليد كان جميلاً ومقبولاً، لولا أنه جاوز الحد قليلاً، فقد طغت مشاهد وحشي وحواراته المطولة مع ریحانة وبلال على زمن طويل من الحلقات، كان أجدر به أن يُصرف في إبراز وقائع أكثر أهمية تتعلق بمجريات تلك الفترة.

أما على المستوى التمثيلي، فإن زياد تواتي في دور وحشي قد بدا شبيه الشكل إلى حد ما بالممثل الذي أدى نفس الدور في فيلم الرسالة، ولقد أبدع إلى حد بعيد في تقمص الدور وأدائه بشكل يصل بالمُشاهد إلى الإقناع والتعاطف، حتى أن البعض قد صرحوا بأن شخصية وحشي في المسلسل كانت أبرز وأجمل وأكثر إقناعاً وجاذبية من دور عمر في حلقات المسلسل الأولى.

* فيصل العميري / بلال بن رباح :

شاهد بلال بن رباح كثيراً في الأفلام والمسلسلات التاريخية، وحفظ الناس كافة المشاهد المتعلقة به والتي يظهر فيها الممثل الأسود دائماً ممداً على رمضاء مكة تنهال عليه السياط وتوضع فوق جسده صخرة عملاقة، ثم يراود على الكفر فلا يزيده ذلك سوى إصراراً على التمسك بدينه منادياً بأعلى صوته "أحدُ أحد".

تكرار هذه المشاهد في أعمال كثيرة وبنفس الطريقة تقريباً لم يجعلها مادة مثيرة للبحث في مسلسل عمر، والذي هو بدوره عرض تلك المشاهد نفسها وبطريقة مماثلة دون أن يأتي بجديد يلفت الانتباه ويهر الأبصار كما كنت أتوقع.

إلا أن مما يُحسب لمسلسل عمر تسليطه مزيداً من الضوء على شخصية بلال بن رباح، عبر إنطাকে بالحكمة في مواضع كثيرة، وتصويره على أنه لم يكن مجرد عبد يطيع الأوامر، بل كان إنساناً ذا عقل ورأي وبصيرة، كما قد جعل المؤلف وليد سيف من العلاقة التي افترضها له مع وحشي والحوارات التي دارت بينهما مادة تبرز جوانب من شخصية بلال كما يراها كاتب المسلسل وكما يجب أن يوصلها للمشاهدين.

الممثل الكويتي فيصل العميري أحسن جداً في أدائه للدور، وجسد بشكل رائع قوة بلال وثباته على الحق وشخصيته القوية التي ظهرت بعد دخوله الإسلام، ويُحسب

لفيصل كذلك إتقانه لأداء التفاصيل المتعلقة بتعابير ملامح الوجه وإبانيتها عن الحالة النفسية للشخصية.

إلا أن ثمة نقطة أزعجتني بخصوص دور بلال بن رباح وهي عائدة إلى المخرج وليس إلى الممثل. تلك النقطة هي إظهاره حليق اللحية ! ولا أجد أي مبرر لذلك من الناحية التاريخية ولا حتى من الناحية الفنية، إذ لم يكن الناس في ذلك الوقت يخلقون لحاهم، ولا نملك أي دليل على أن بلال كان بلا لحية خِلقةً أو حلقاً، فلماذا يظهر بلال حليقاً في مسلسل عمر بل وغيره من الأعمال السابقة التي أظهرت بلالاً؟!

أشياء كهذه لا اعتبرها اجتهادات فنية ولا أقبلها في مطلق الأحوال، بل اعتبرها أخطاء إخراجية مزعجة لتصوري عن الشخصية، والواجب على المخرج أن يقدم شخصيات عمله بالشكل الذي كان سائداً في فترة عيشها، والناس في تلك الحقبة لم يكونوا يخلقون لحاهم، بل إن حلق اللحية ظل يُعتبر مثلاً قد يعاقب بها الرجل المخطئ بعد قرون من البعثة.

ولذا، وبسبب من هذا الخطأ، يظل تصوري عن بلال بن رباح رضي الله عنه مختلفاً تماماً عما تقدمه الأعمال التاريخية التي تجسد شخصيته بما فيها مسلسل عمر، ولعل هذه مناسبة لأقول بأن من معايير إصداري للأحكام على شخصيات المسلسل مدى ترسخها في ذهني، إذ أن هناك شخصيات بعد أن شاهدتها في المسلسل بثُ استحضر صورتها المجسدة تلقائياً إذا ما ذُكرت أو قرأت عنها، وهناك في المقابل شخصيات أخرى رغم مشاهدتي لها في المسلسل إلا أن صورتها في ذهني تظل مختلفة عما ظهرت عليه.

هذا الضرب من الانطباعات هو مما أعتمد عليه في تكوين آرائي، ويؤسفني القول بأن حاتم علي لم ينجح في استبدال صورتي المتخيلة عن بلال بالصورة التي ظهرت في مسلسله مع التأكيد على الأداء التمثيلي المتميز للفنان فيصل العميري.

* مهيار حضور / خالد بن الوليد :

لقد أثار تجسيد دور خالد بن الوليد جدلاً عريضاً إبان عرض الجزء الأول من المسلسل الذي حمل اسمه، وكان الجدل على مستويين الأولى تجسيده في حد ذاته، والثاني تجسيده من طرف ممثل نصراني هو باسم ياخور.

ثم عُرض المسلسل رغم ذلك، وعُرض جزء ثانٍ منه أدى فيه دور خالد الفنان سامر المصري، وهو يختلف في الشكل والملامح اختلافاً جذرياً عن باسم ياخور !

ثم الآن انتقل الجدل إلى مستوى أعلى بكثير وهو تجسيد كبار الصحابة والخلفاء الراشدين، الأمر الذي تم في مسلسل عمر، والذي لم يعد معه تجسيد دور خالد بن الوليد شيئاً مثيراً للجدل لحدوث ما هو أكبر منه في نظر المعارضين لفكرة التجسيد.

وقد جسد دور سيف الله المسلول هذه المرة الفنان السوري مهيار حضور.

ولا أخفي إعجابي الشديد بدور خالد في مسلسل عمر، سواء على مستوى اختيار الممثل أو على مستوى إخراج شكله من طرف المخرج وأيضاً على مستوى الأداء التمثيلي للفنان الشاب مهيار حضور، بل إنني أذهب إلى القول بأن دور خالد بن الوليد هو من أبرز أدوار المسلسل وأفضلها وأكثرها إمتاعاً للمشاهد وإقناعاً له.

ظهر مهيار حضور في دور خالد بشكل يختلف كثيراً عن هيئته الحقيقية، الأمر الذي كان لصالح الدور دون شك، كما قد سُخر الدور المهم جداً في قصة المسلسل

لعرض المعارك والغزوات التي صُورت بتقنيات عالية الجودة، وكان خالد بن الوليد فيها بطلاً مغواراً لا يشق له غبار، وقد أجاد الفنان مهيار خضور أداء مشاهد القتالات بشكل بالغ الإتقان والروعة، استطاع عن جدارة واستحقاق أن يجسد للمُشاهد قوة الإسلام وهيئته وخطوته على أعدائه.

وهناك أيضاً نقطة أحب أن أذكرها، وهي تقوم دليلاً على عبقرية الأستاذ حاتم علي وتفوقه على نظرائه المخرجين بما لا يدع بينهما وجهاً للمقارنة، فقد قمت بعمل مقارنة بين مشهد موت خالد بن الوليد في مسلسل عمر، وهو مشهد يقع في حلقة الأخيرة، وبين مشهد موته في الحلقة الأخيرة من الجزء الثاني من مسلسل خالد بن الوليد، فكان التفوق واضحاً وبدرجات عديدة لصالح مشهد وفاة خالد في مسلسل عمر، رغم أن خالداً فيه مجرد شخصية من عدة شخصيات هي دون البطولة، في حين كان مشهد وفاته في مسلسل تخصص في سيرة خالد وعُرض على جزئين مجموع حلقاتهما ستون حلقة، مشهداً باهتاً ضعيفاً رديء الإخراج !

وهذا ما أكد لدي قدرة المخرج حاتم علي أن يمنح لكافة شخصيات مسلسلاته من الاهتمام ما يكفي لتخليدها في التاريخ، بل أذهب إلى القول بأن حاتم يستطيع أن يُظهر شخصية ثانوية في أحد مسلسلاته بشكل أفضل مما يظهرها مخرج آخر تكون تلك الشخصية في مسلسله شخصية رئيسية، وهذا حدث أكثر من مرة وليس خالد هنا سوى مثال من بين عدة أمثلة تؤكد هذا المعنى.

* محمود خليلي / أبو عبدة بن الجراح :

سبق وأدى الفنان الفلسطيني محمود خليلي عدداً من الأدوار الثانوية في الأعمال السابقة للمخرج حاتم علي كصلاح الدين الأيوبي وصقر قریش وربع قرطبة وملوك الطوائف، وكان يستطيع أن يثبت حضوره القوي في الأدوار التي قام بأدائها،

ولم يختلف الأمر هذه المرة أيضاً في مسلسل عمر، والذي حصل فيه على دور أكثر أهمية للصحابي الجليل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح.

ليس لي تعليق خاص عن هذا الدور لكنني أقول بأنه أعجبني، وليس لدي أي اعتراض على اختيار الممثل أو أدائه الذي كان متميزاً وجسّدت ببراعة قوة الشخصية وبأسها في المعارك والحروب.

* قاسم ملحو / عمرو بن العاص :

ما من شك في أن الفنان قاسم ملحو هو من الفنانين المتميزين بحسن الأداء وجمالية الصوت وقوته، فهو إلى جانب التمثيل يعمل في دبلجة أفلام الكرتون أيضاً، إلا أن اختياره لأداء دور عمرو بن العاص لم يُرق لي كثيراً ولم يقنعني، وأعتقد أن الدور كان في حاجة إلى ممثل آخر.

مع الأسف، الصورة الذهنية التي أملكها عن عمرو بن العاص رضي الله عنه لا تزال مختلفة تماماً عن الصورة التي قدمها حاتم علي في مسلسل عمر، وانتقادي هنا موجه للمخرج فقط وليس للممثل الذي لا أملك أي اعتراض على أدائه المتقن للدور كما هو متعود منه.

* محمد مفتاح / حمزة بن عبد المطلب :

الحديث عن دور حمزة بن عبد المطلب في مسلسل عمر يقودنا فوراً لتذكر نفس الدور في فيلم الرسالة، وهو الدور الذي أثار جدلاً عريضاً بسبب تجسيده من طرف الفنان المصري الراحل عبد الله غيث.

ومما لا شك فيه أن صورة حمزة مجسّدة من طرف غيث لا تزال حاضرة في وجدان الجمهور العربي الذي شاهد فيلم الرسالة وأعاد مشاهدته مرات كثيرة، وهذا ما

حمّل طاقم مسلسل عمر مسؤوليةً كبرى إزاء هذا الدور، سواء على مستوى التأليف أو الإخراج أو التمثيل.

وربما ليس علينا أن نتحدث عن الأداء التمثيلي للفنان المغربي محمد مفتاح الذي قام بأداء هذا الدور، فهو من أكثر الفنانين اقتداراً وإتقاناً، وقد كانت له في كافة الأعمال التاريخية السابقة لحاتم علي أدوار طبعت تلك الأعمال بطابعها المميز، وهي بالترتيب أسد الدين شيركوه في مسلسل صلاح الدين، الخادم بدر في مسلسل صقر قريش، إبراهيم الحداد في مسلسل ربيع قرطبة، وأبو بكر بن عمار في مسلسل ملوك الطوائف.

إلا أنه ينبغي لنا أن نذكر، في أسف شديد، أن خلافاً ما أصاب دوره في مسلسل عمر، وذلك على مستويين، السيناريو والإخراج.

فعلى مستوى السيناريو، كان ظهور حمزة قليلاً في المسلسل، وكان إلى جانب قلته متذبذباً متباعداً، يفتقر إلى التأثير الذي يكفيه لينغرس في ذهن المشاهد الذي كان مهتماً ومتربصاً بهذا الدور المهم الذي لا شك سيخضع للمقارنة مع نظيره في فيلم الرسالة.

وكانت النتيجة استياءً عاماً من دور حمزة في مسلسل عمر وشبه إجماع على تفضيل الدور الذي ظهر في فيلم الرسالة مجسّداً من طرف عبد الله غيث.

يمكنني القول بأن مسلسل عمر قد فشل في إظهار شخصية حمزة بشكل مؤثر يتفوق به على فيلم الرسالة، وليس السيناريو وحده من يتحمل مسؤولية هذا الفشل، بل إن للإخراج نصيب أوفر منه، وأعني هنا على وجه التحديد خضوع الدور لدبلجة

صوتية، بحيث تم استبدال صوت محمد مفتاح بصوت ممثل آخر، الأمر الذي خلق استغراباً وربما استنكاراً لدى المتابعين.

لقد فضل حاتم علي إجراء دبلجة صوتية لمجموعة من الممثلين لأسباب مختلفة، وما لا أشك فيه أن السبب في قرار دبلجة صوت مفتاح هو لكنته المغربية المميزة، والتي تجعل نطقه للعبارات العربية الفصيحة يبدو ركيكاً وخاطئاً في كثير من الأحيان، لا سيما وأن اللكنة المغربية تجبره على نوع من الإمالة والترقيق لكلمات تحتاج لنطقها بشكل مفخّم.

لا نختلف مع حاتم علي في أن اللكنة المغربية قد تتسبب للممثل بأخطاء في النطق، ولا نختلف معه في أن لكنة الممثل محمد مفتاح تبدو واضحة جداً للمشاهدين، إلا أن ما لم يكن ينبغي تجاهله هو تعود الناس على تلك اللكنة المميزة التي ألقوها من محمد مفتاح ولم تعد تبدو غريبة عليهم، بل إن الغريب هو صوته المدبلج الذي لم يناسب شكل الممثل ولا شخصيته، وكان سبباً في تغييب جزء كبير ومؤثر من شخصية محمد مفتاح كما عرفها الناس من خلال أدواره القديمة في المسلسلات التاريخية.

وإني أذكر عن نفسي، وعن غيري ممن اختبرت هذا الأمر عنهم، بأننا استغربنا كثيراً من اللكنة العربية لمحمد مفتاح أيام كنا نشاهده للمرة الأولى في مسلسل صلاح الدين، ثم لم نلبث أن تعودنا عليها، ثم لم نلبث أن أحببناها، ثم لم نعد نحس بغرابتها في أدواره التالية إلا بقدر ما نحس بتفردا وتميزها، حتى صارت لكنة محمد مفتاح عنصر قوة قد يُحسب لصالح أدواره وليس العكس.

ولذا لا أجد نفسي متفقاً مع حاتم علي في قرار دبلجته لصوت مفتاح، وهو قرار لم يكن له داعٍ، وأساء للشخصية ولحضورها ولتفاعل الناس معها ولم يخدمها في شيء مطلقاً.

يظل من المؤسف أن يكون دور مهم كحمزة بن عبد المطلب في مسلسل عمراً خطأ إخراجياً كانت له آثاره السلبية التي أدت إلى استياء المتابعين وانتقادهم.

* كلمة أخيرة :

إن الممثلين هم أكثر العناصر الدرامية ظهوراً واستقطاباً للاهتمام في أي مسلسل، فهم مادته والقائمون بأداء أدواره ومعهم ومع أدائهم يتفاعل المشاهد أكثر من أي عنصر آخر، إلا أن إبداع الممثل يتأثر حتماً، بشكل أو بآخر، بالعناصر الأخرى المكونة للعمل الدرامي وهي التأليف والإخراج والإنتاج. بل يمكننا القول بأن بين الممثل و كاتب النص والمخرج علاقة تبادلية، بحيث يؤثر ضعف أحدهما على الآخر بشكل واضح.

فإن الممثل الجيد سيبدو فاشلاً مع نص فاشل، أو إخراج فاشل، أو إنتاج فاشل، كما أن النص الجيد سيبدو فاشلاً مع ممثل فاشل، وهكذا...

إلا أنه على العموم يندر أن نجد في الأعمال الدرامية السورية ممثلاً سيئ الأداء، ومعظم ما يظهر من ضعف في الأداء التمثيلي يكون مرده إلى سوء النص أو سوء الإخراج وليس لخلل في الممثل، سوى فيما يتعلق بالأخطاء اللغوية الكثيرة التي لا يتحمل مسؤوليتها كاملة الممثل بل يتقاسمها مع المدقق اللغوي أيضاً وكذلك المخرج.

ولعل قارئ هذه السطور قد انتبه إلى أن ما ذهبت إليه من آراء في الأداء التمثيلي لأدوار مسلسل عمر، لا يمس بحال من الأحوال أداء الممثلين في حد ذاته، بقدر ما يحاول أن ينقد بقية العوامل التي أسهمت في نجاح الدور أو فشله.

وعلى كل حال، لا ينبغي أبداً أن نتجاهل بأن المخاوف من تناول المسيء لشخصيات الصحابة في أعمال مستقبلية تظل قائمة، بل ربما ستزداد وتتضاعف بعد أن عُرض هذا المسلسل الذي كان أول من فتح الباب على مصراعيه، ومما يسهل توقعه أن يتهافت الكتاب والمخرجون في قابل السنوات على الخوض في مواضيع وشخصيات تاريخية لها من الحساسية ما يفوق قدرتهم على معالجتها بشكل سليم، ناهيك عما إذا كانوا ينطوون على سوء القصد وهذا هو الغالب في أحوالهم.

وهنا أحب التأكيد، مرة أخرى، على ضرورة ألا تقتصر مسؤولية الجهات الشرعية على قراءة النص التاريخي فقط، بل يجب أن تتعداه إلى القراءة الفنية أيضاً، فإن خطاب الصورة هو ليس أقل أهمية من خطاب الكلمة، وإن الصورة إن ظلت دون رقابة تسهر عليها جهات شرعية معتمدة، لمن شأنها إن أسيء استخدامها أن تفسد التاريخ وتشوه شخصياته مهما كان النص سليماً ومعالجاً ومدققاً من تلك الجهات.

• نعم لم يحصل تشويه، ولكن .. !

الآن وبعد أن أتممت عرض مجمل الانطباعات التي تكونت لدي تجاه المسلسل، على مستوى التأليف والإخراج والتمثيل، وقبلها معالجة للسؤال الفكري المتعلق بالمسلسل، أجد أن من اللازم أن أقول كلمة حول السؤال الذي لا يزال يطرح

نفسه، والذي كان موضوعاً لأهم مخوفات المعارضين لفكرة تجسيد الصحابة، ألا وهو سؤال التشويه.

فهل شؤّه مسلسل عمر شخصية عمر ؟

وهل شؤّه مسلسل عمر أحداً من الصحابة ؟

إن أي متابع منصف للمسلسل سيجزم أن المخرج لم يعتمد إحداث أي تشويه لعمر أو لغيره من الخلفاء الراشدين، أو أحد من الصحابة عموماً، ومهما اختلفنا مع المخرج في بعض التفاصيل الفنية المتعلقة بأشكالهم أو باختيار الممثلين الذين جسدوا أدوارهم، إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن المخرج والممثلين قد تعاملوا مع كافة الصحابة الكرام باحترام واضح، ولم نشاهد في المسلسل أي مشهد تُعمدت فيه الإساءة لأحدهم بالقول أو الفعل، وحتى إذا استثنينا المشهد الذي ظهر فيه أبو هريرة بشكل لا يليق به، فإن النص الحوارى الذي دار بينه وبين عمر قد حاول الإبراز بأن موضوع الاختلاف بينهما كان فقط حول الإكثار من رواية الحديث، في حين أقرّ عمر بسلامة دين أبي هريرة وأنه عنده غير متهم، وفي هذا رسائل مخفية لمن أراد استنباطها.

ثم إن الحديث عن هذا يعيدنا لما ذكرناه في فقرة الجانب الفكرى من مسلسل عمر، وهنالك تكمن تلك الـ (لكن) الموجودة في عنوان هذه الفقرة.

وبيان ذلك أنني أقول، بأن المسلسل فعلاً قد قدّم لنا مشاهد مؤثرة، وجسّد لنا بشكل رائع أخلاق عمر وعدله وتواضعه وزهده، كما قد تناول بقية الصحابة الكرام باحترام وتعظيم يليق بهم، إلا أن السؤال الذى ينطرح أمامى الآن هو :

لأي شيء تم تعظيم عمر فى المسلسل ؟

وما هي الجوانب التي ركز المسلسل على إبراز عظمة عمر فيها ؟ ولماذا ؟

هل كان تعظيم المسلسل لعمر من أجل خدمة المذهب السني ؟ أم أن المسلسل يقدم طرحاً ليبرالياً ينتقي من سيرة عمر ما يخدم أهداف التأويل الحداثي لتاريخنا الإسلامي؟

وهنا أجد نفسي مضطراً للقول، في أسف، بأن المسلسل وإن كان قد قام بتعظيم شخصية عمر بشكل واضح، إلا أن تعظيمه ذاك لم يكن في خدمة الفكر الإسلامي السني إلا بقدر ما يتقاطع مع الأهداف الحقيقية للمسلسل، فإذا حدث تعارض بين أهداف المسلسل وبين المراجع التاريخية فإن المسلسل يختار الانتقاء من تلك المراجع أو حتى تحريفها، خدمة لطرحه الفكري الموافق للطرح الليبرالي.

فنجد أن المسلسل قد كان أميناً في عرضه لبعض المشاهد التي لا تثير له إشكالاً فكرياً، إلا أنه كان واضح الانتقاء والحذف والتزوير لما لم يوافق أهدافه، وأذكر هنا بمشهد دخول عمر لبيت المقدس، وكيف استبدل نص المسلسل أعظم عبارة قالها عمر في عزة الإسلام والمسلمين، بحديث موضوع مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجاملةً منه لأهل الذمة !

أمر كهذه ولكي لا تجد لها رواجاً عند عامة المسلمين، كان لزاماً على أهل التخصص أن يقوموا برصدها والتصدي لها، وبيان ما تنطوي عليه من مقاصد وأهداف، الأمر الذي لم يحدث مع الأسف إلا قليلاً من طرف بعض المتطوعين الذين كانت لهم بعض الملاحظات والاستدراكات عن المسلسل قاموا بتدوينها في مقالات مكتوبة أو في مقاطع فيديو منتشرة على اليوتيوب وغيره.

وختاماً أقول، بأن ما ورد في هذا الكتاب ليس دعوةً لمقاطعة المسلسل، وليس دعوةً أيضاً لتصديق ما جاء فيه تصديقاً أعمى، بل إن ما أدعو إليه أن نتعامل بإيجابية وإنصاف مع هذا الطرح الدرامي، نوافقه فيما يستحق الموافقة، ونأخذ ما جاء فيه من خير لا يخالف الحق، ثم لا يمنعنا ذلك من محاكمته في ميزان النقل الصحيح والفكر السليم.

آخر الكلام

دعوة إلى النزاهة

ماذا بعد ؟

سؤال تكرر في ذهني ولم يزل حتى كاد يصير هاجساً، كان يفرض نفسه على تفكيري ويقف بيني وبين شاشة التلفاز وأنا أشاهد حلقات مسلسل عمر خلال شهر رمضان، ثم وأنا أستدرك ما فاتني من حلقاته بعد رمضان، ثم أثناء كتابتي لهذه السطور.

ماذا بعد ؟

هاجس مستقبلي لم يزل يشغل تفكيري منذ الآن، وأنا متنبئ بمزيد من الجدل في العام القادم، وربما سيكون جدلاً أعتى وأشد وأخطر.

ينبغي أن نعترف بأن مسلسل عمر قد أذاب أثناء عرضه وبعده جزءاً معتبراً من المخاوف التي سيطرت على الكثيرين تجاهه، وقد ظل معرضاً للنقد العقائدي والفكري والفني رغم كل شيء، ومن أسف أن المسلسل لم يتعرض حتى الآن لمحاولة نقدية جادة يشرف عليها متخصصون، حتى من طرف أولئك الذين حاربوه ودعوا إلى مقاطعته، وكان أجدر بهم أن يتصدوا لدراسته وتبيين ما فيه من صواب وخطأ بدل

السكوت والاستمرار في تكرار نفس الكلام الذي لم يؤت ثماره إلا على أضيق الحدود.

ماذا بعد ؟

فليس الدكتور وليد سيف هو الكاتب الوحيد للدراما التاريخية في عالمنا العربي، وإن كنا نشهد له بأنه الأكثر نزاهة، وليس حاتم علي هو المخرج الدرامي الوحيد في عالمنا العربي، وإن كنا نشهد له بأنه الأكثر براعة.

فمن سيكون التالي في مسلسل المرأة على تناول التاريخ ؟

وماذا سيكون عنوان العمل القادم للشنائي المتميز وليد وحاتم ؟

وهنا خاطر طالما أزعجني وأنا أرقب باهتمام تتابع مشاهد المسلسل وانقضاء أحداثه وانفراط عقد حلقاته، حتى صار ذلك الخاطر ضرباً مما يقوله الناس "الحلو لا يكتمل".

وليس ذلك الخاطر بذي علاقة بنقد فني أو تاريخي فقد تقدم ذكر ذلك، لكنه ذو ارتباط بثقتي وتعلقي بجودة ما يقدمه الشنائي المحترم وليد وحاتم، ومعنى ذلك أنني تمنيت أن أشاهد منهما أعمالاً أكثر تفصيلاً تتناول موضوع السيرة النبوية وفجر الإسلام والخلافة الراشدة.

لقد ارتكز المسلسل على سيرة عمر بن الخطاب، ثم أطل في عرضه لسيرة الإسلام إطالة لم تشف شوقنا لا إلى سيرة الإسلام ولا إلى سيرة عمر، فقد مرت سنوات البعثة سريعة في الحلقات، وأسقطت أحداث كثيرة ومهمة، ولم نعيش أيام الإسلام الأولى بما يكفي، ثم جاءت خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في بضع حلقات مختصرة، ثم تلتها خلافة عمر في بعض حلقات أيضاً.

ثنائي مثل وليد سيف وحاتم علي، كنت أتمنى أن أشاهد منهما مسلسلاً يختص بالسيرة النبوية، والسيرة وحدها، ثم مسلسلات أخرى تفصل أكثر ما يمكنها التفصيل في العصور الزاهرة للخلافة الراشدة، وصولاً إلى أحداث الفتنة الكبرى التي ما أحوجنا إلى معالجة درامية نزيهة لها تميز الحق من الباطل وتقرر عقيدة السنة في مواجهة تيارات الغلو والضلال والانحراف.

وختامي لهذا الكتاب تأكيد على أهمية الدراما التاريخية وحجم الحاجة لها، مما آمل كل الأمل أن يستوعبه الذين يحاربون هذا الفن حرب من يبذل وقته وجهده في الدعوة لمقاطعة مسلسل تاريخي جديد، في حين لا يتحدث إلا قليلاً عن عشرات المسلسلات والأفلام المائعة الفاسدة التي كانت ولم تنزل تنخر في عقول الناس وأفكارهم وأخلاقهم.

وفي الختام تأكيد أيضاً على دعوتي للنزاهة والأمانة من طرف كل من لهم علاقة بمستجدات الدراما التاريخية من كتاب ومخرجين ونقاد وهيئات دينية وفكرية، سواء أكانوا على الاتفاق في الرأي أو على عدمه.

نزاهة الكاتب التزامه بالنصوص الثابتة والأحداث التاريخية وصفات الشخصيات الظاهرة في أقوالهم وأفعالهم التي يكتبها للإخراج والتمثيل، وكذلك بعده عن التدليس والخداع والتزوير والغش والانتقاء المغرض لخدمة طرح إيديولوجي معين.

ونزاهة المخرج احترامه للنص والتزامه به واحترامه لحقيقة الأجواء التاريخية التي يشرف على صناعتها وتصويرها ومونتاجها وإخراجها للتلفزيون مادةً يتحلق حولها أفراد الأسرة لتمنحهم الفائدة والمتعة.

ونزاهة الناقد تجرده من الهوى وإنصافه لما ينقده معطياً لكل ذي حقه، مقرأً بإيجابيات العمل وسلبياته مبتغياً وجه الله في دراسته، منزهاً نفسه عن الآراء الشخصية والانفعالات العاطفية التي لا تلبث إن تعدت حدودها أن تظهر في نقده تهافتاً ساذجاً إلى التلميع والتطويل أو إلى الإسقاط والتحطيم.

إن ظاهرة الدراما التاريخية قد صارت جزءاً لا يتجزأ من واقعنا الفني والفكري، لم يعد مجدياً تجاهلها أو إنكارها بغض النظر عن حقيقة أهدافها، ولما كانت المسلسلات التاريخية لم تزل منذ سنوات تقترب شيئاً فشيئاً من أكثر فترات تاريخنا حساسية وإثارة للجدل، ولما كان الغالب على أحوال القارئ عليها سوء القصد، فإن ذلك أدعى إلى التعاطي الإيجابي معها ابتغاءً لنقدها وطلباً لتمييز صوابها من خطئها وحسنها من قبيحها، فيكون ذلك أدنى لإنصافها وإنزالها منزلتها وإعطائها حقها الذي تستحق، وأدعى كذلك لإضفاء مزيد من الزخم على الحراك الفكري الذي ما أحوج أمتنا إليه كشرط أساسي من شروط نهضتها.

وعلاوة ذلك أن نقد المسلسل التاريخي لا يستقيم إلا بالتجهز له بما يلائم موضوعه من الكتب والمراجع المتعددة التي ينبغي على الناقد أن يجمعها ويتعرف على أصحابها ثم يبحث في متونها ويقارن بينها، ثم يستبين في نهاية المطاف حقيقة الشخصية والحدث والحوار والعبارة، ثم يقارنها مع ما ورد في المسلسل فيحكم له أو عليه.

وهذا إن تحقق ففيه خير كثير ولا شك، إذ ما أحوجنا إلى شباب قارئ يعيد ربط الاتصال مع تراثه ومراجعته وكتب تاريخه، والمفارقة هنا أن يكون المنطلق في ما ذكرنا الشك والريبة وسوء الظن في ما تعرضه تلك المسلسلات، وقد سبق منها ما جعلها مستحقة لذلك.

فهذه دعوة أدعوها نفسي وإياكم، إلى البحث والدراسة والتنقيب في ما يجتهد البعض للحيلولة بيننا وبينه من مراجع تاريخنا وتراثنا، وفيها من أنوار العلوم ما يدل طالب الحق على طريق الحكمة.

هذا وما كان من صواب في هذا الكتاب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله الموفق، وله الحمد في الأولى والآخرة.

* تم بحمد الله *

طنجة

2012/09/23